القضاء العرفي

مثلما أن الدولة على الصعيد السياسي تعتبر مرحلة متطورة من التنظيم يتجاوز التنظيم القبلي ويلغيه، كذلك على المستوى القانوني تعتبر الشريعة التي تستمد مرجعيتها من النصوص المقدسة تجاوزا للقضاء العرفي الذي يستمد مرجعيته من العادات والتقاليد العرفية ومن السوالف والسوابق والنصوص الشفهية. ومثلما تختلف الأسس الشرعية التي يستمد منها الشيخ في القبيلة سلطته عن تلك التي يستمد منها الأمير في الحاضرة سلطته، كذلك تختلف المرجعية المعرفية الشفهية التي يستند عليها العارفة عند البدو عن تلك المرجعية المعرفية الكتابية التي يستند إليها القاضي والفقيه عند الحضر.

الإجراءات والمرافعات العرفية

القانون العرفي لدى القبائل البدوية نتاج ثقافة شفاهية. في هذه المرحلة الشفاهية من مراحل التطور الثقافي لأي مجتمع بشري تتداخل مكونات المركّب الثقافي ومختلف الأنساق الاجتماعية والثقافية مع بعضها البعض بالشكل الذي يساعد على بقائها بمجملها ماثلة في الذاكرة وعلى استحضار الكل بمجرد أن يرد إلى الذهن أي من جزئيات هذا الكل. أما تلك الحواشي التي تقع على هامش المتن الثقافي ولم تتغلغل فيه وتتداخل مع بقية الأنساق بشكل مكين ولا ترددها الألسن بشكل متكرر فإنها سرعان ما تنمحي من الذاكرة الجماعية وتسقط من دائرة الترداد الشفهي. هذا الترابط الوظيفي والتركيب المتداخل بين المكونات المختلفة للثقافة القبلية يجعلها تبدو لمن ينظر إليها من خارجها كما لو كانت كتلة هلامية مضطربة غير محددة الشكل وتفتقد للنظام. تشابك المكونات المختلفة للبناء الثقافي يجعل من الصعب فرزها وفصلها إلى مؤسسات واضحة المعالم ومستقلة عن بعضها البعض. فليس من السهل مثلا تحديد الممارسات والمعارف القانونية والتعرف عليها وفصلها كجسم مستقل دون النظر إلى الثقافة ككل وإلى بقية الممارسات والمعارف الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. فلو أردت الكتابة عن القانون العرفي فلا مندوحة لك من أن تتنقّره وتتلقّطه على شكل أشتات متناثرة وشذرات مبعثرة منبثّة في ثنايا المأثور القبلي، والتي تشكل في مجموعها ما يسميه اللغويون "سنن العرب" ويسميه البدو **سلوم العرب** (ويسمى **سوادي** عند بدو الأردن **وسواني** عند بدو العراق). ولكن علينا أن نتنبه إلى أن كلمة "عرب" في اللهجات البدوية لها معاني عديدة ليس من بينها المعنى الحديث الذي يشير إلى العرب كجنس أو قومية. حينما يستخدم البدو هذه الكلمة فإنهم، اعتمادا على السياق، قد يستخدمونها للإشارة إلى جماعة من الناس ينتمون لشيخ معين، كقولهم: عرب ابن جندل، وقد يستخدمونها للإشارة

إلى عموم الجنس البشري. ولو تتبعنا استخدام البدو لهذه الكلمة لوجدناها تشير بشكل ضمني إلى البشر بحكم تمتعهم بالخصائص الإنسانية مقابل الحيوان الأعجم والكائنات التي لا ترقى إلى مستوى الإنسان الذي يتفوق عليها بحكم امتلاكه للقوانين واللغة (ومن هنا ربما جاءت كلمة "أعرب" من العرب، بل ربما حتى "عبّر" من العبراني، أي أفصح عما في خاطره).

القانون العرفي نشأ وترعرع ليتلاءم مع حياة البدو الترحالية ونظامهم القبلي، لذا فإنه من الطبيعي أن يبدو لنا هذا القانون شاذا وغريبا حينما يطبق في بيئة حضرية مستقرة تحكمها سلطة مركزية. فنظام الجلاء مثلا والذي يشترط على القاتل وخمسته الجلاء عن ديارهم واللجوء عند قبيلة أخرى حتى يتم الصلح بينهم وبين أهل المقتول لا يمكن تطبيقه في مجتمع مستقر ممتلكات أفراده ثابتة غير منقولة. مثل ذلك أيضا **الوساقه** وهو أنه إذا رفض المدَّعَى عليه التقاضي يقوم المدعي بحجز بعض ممتلكاته من الإبل والخيل ووضع اليد عليها ليجبره على الإذعان للحق ويدخلها بوجه شخص ثالث على سبيل الأمانة حتى يحصل منه على حقه (Murray 1935: 134, 238).

القضاء من أهم المسائل التي يتضح فيها التباين بين ثقافة الحضر وثقافة البدو ويحتد فيها التوتر بين الدولة والقبيلة. وتختلف حدة التوتر من دولة لأخرى. فالدول التي لا يشكل فيها البدو نسبة كبيرة من السكان قد لا تمانع في تطبيق القضاء العرفي بين أبناء القبائل البدوية، كما في بلاد الشام والعراق (Stewart 2006: 270ff). أما في الدول التي تتألف غالبية سكانها من البدو وتشكل سلطة القبيلة فيها تحديا حقيقيا لسلطة الدولة، كما هو الحال مثلا في المملكة العربية السعودية، فهناك رفض قاطع للقضاء العرفي وعدم اعتراف بشرعيته، خصوصا أن هناك بعض البنود في العرف القبلي يتعارض تطبيقها مع وجود سلطة الدولة، مثل قضايا الوجه والجيرة والدخالة والخاوة والوساقة وما شابهها. وفي العصور الماضية، حينما كان الصراع لا يكاد ينقطع بين الدولة والقبيلة، نجد أنه إذا كانت الغلبة للدولة طبقت الشريعة أما إذا تغلبت القبيلة طبقت القانون العرفي، أو ما يسمى الفريعه، حتى بين أهل القرى الذين ينكصون إلى التنظيم القبلي والقانون العشائري في ظل غياب سلطة الدولة.

والبدو الأقحاح لا يعترفون بقوانين الدولة، أي أنه لو اقترف بدوي جرما، أيا كان، وقبضت عليه سلطات الدولة وحاكمته وعاقبته فإن الطرف المتضرر، ماديا أو معنويا، لا يلقي أي بال لهذا الحكم والعقوبة المترتبة عليه ولا يرضى إلا بحكم صادر من قاض عشائري ويتم تنفيذه وفق القوانين العرفية (عارف ٢٠٠٤: ٨٦؛ Kennet 1925: 30-1). من الجانب الآخر نرى أن الكثير من الدول لا تعترف بالأعراف القبلية الشفهية ولا تعتبرها قوانين صالحة وترى أنها تتنافى مع القوانين المدنية والشرائع

السماوية المكتوبة. وقضاة الدولة الحضر يسمون عوارف البدو وقضاتهم "طواغيت" من باب الازدراء وعلى اعتبار أنهم يحكمون بغير ما أنزل الله وعلى اعتبار أن وظيفة العارفة تمثل امتدادا لوظيفة الكاهن في العصر الجاهلي، خصوصا وأنهم يصدرون أحكامهم القضائية بألفاظ مسجوعة على هيئة سجع الكهان، علاوة على لجوئهم إلى إجراءات قضائية وأساليب في القَسَم والتثبت من صدق المتهم لا يقبلها الحضر مثل أساليب البشعة بالنار وما شابه ذلك. والقضاة الحضر أصلا ينكرون الممارسات القبلية من سلب ونهب والتي يتعامل معها القضاء العرفي على أنها قضايا مشروعة وصحيحة بينما تعتبر في الشريعة أمورا محرمة وغير جائزة. كما لا يقرون حرمان النساء من الإرث ولا يقرون العادات القبلية في الزواج والطلاق ويرفضون التعامل معها ومع غيرها من الممارسات التي يحرمونها أساسا، مثل تحجير بنت العم وزواج الخطف والزواج من امرأة مطلقة قبل استكمال عدتها أو امرأة ناشز "طامح". هذا بالإضافة إلى المسؤلية الجماعية التي تجيز لأهل القتيل إذا لم يظفروا بالقاتل بأخذ الثأر من أي من خمسته، والتي تتنافى مع الآية: ولا تزروا وازرة وزر أخرى.

وبينما تستند الشريعة (القضاء الشرعي) في مرجعيتها إلى الكتاب والسنة ومؤلفات الفقهاء ويتم تأهيل القضاة الشرعيين في المدارس الدينية فإن الفريعة (القضاء العرفي) تستند إلى السوالف وإلى سلوم العرب أي الأعراف القبلية وعادة ما يرثها الخلف عن السلف وتبقى متوارثة في نفس العائلة.

وعن قضاة البدو يتحدث محمد بن عبدالله بن بليهد عن قضية كان هو طرف فيها وذلك حينما حل عند نجع من قبيلة الشيابين. يقول ابن بليهد "وطال النزاع بينه وبينهم وانتهت الدعوى بقبول رجل عارف لأمورهم من الشيابين من غير قبيلتهم يقال له عبيد ابن جري، فاجتمعوا عنده وذهبت عنهم لأني أعتقد أنه طاغوت" (بليهد ١٩٧٢/٥: ٢٩٧). وهذا رأي حضري آخر عن قضاة البدو هو محمد العلي العبيد:

> وكان عندهم قضاة منهم يحكمون بالطاغوت ويرضونه حكما بينهم لأنهم لا يتحاكمون عند قاضي شريعة عادل في حقوق شرعية، بل إن مخاصماتهم كلها في محرمات وفي كسب أخذوه ظلما من غيرهم. فلو تخاصمو عند قاضي شريعة عادل لقال لهم كل هذا حرام عليكم أكله ردوه على أهله الذي أخذتوه منهم. كل ما يحكم فيه عارفتهم الذي يرضونه فهو محرم على كل الخصمين. ومثال ذلك ما رواه لي الشيخ ناصر بن حسين في سنة ١٣٢٩. وكان في ذلك الحين قاضي للشريعة في رنية. فروى لي بقوله "إني قبل سنتين سافرت إلى بيشة وقت حصاد الزرع لعادة يجرونها لي سهما من زروعهم." قال "فقبضت منهم ما تيسر ورجعت إلى رنيه. فلما كنت في عرض الطريق صادفني ركب من قحطان فأخذوا ما معي أنا وأصحابي وسلبوا ثيابنا. فلما حانت صلاة العصر قالوا تقدم وصل بنا. وكانوا قد أبقوا على ثوب لا يسترني. فقلت ردوا علي ثوبي وأصلي بكم فردوه علي. فصليت بهم قصرا وجمعا. فلما فرغت من صلاتي يممت وجهي إليهم حسب العادة. فقالوا: ذاكرنا، ومعناه عظنا وحدثنا. فقلت: أول ما أحدثكم به ردوا علي حلالي. فقالوا: إن الله كاتبه لنا ياشيخ وإلا كان صدك عنا يمين أو شمال. فقلت: إذا كنتم تأخذون حلال

المسلم بدون حق فلا تصلون. فقالوا: هل تريد أن نعاديك ونعادي ربنا؟ إلا نبي ناخذ حلالك ونصلي لربنا." قال "فما وجدت معهم حيله." وكان جميع من يحكم بينهم بين خصمين لا يحكم إلا بعوائدهم ولا يعلم بالشريعة ولا فطر عليها (عبيد: ٢٧٩).

العقاب في القضاء العرفي، على خلاف القوانين الوضعية، لا يستهدف الإصلاح الأخلاقي وتقويم سلوك الفرد وتأديبه وردعه وجعله عبرة لمن اعتبر، إذ لا يوجد مفهوم الحق العام أو القانون الجنائي. العقاب في القضاء العرفي أقرب إلى مفهوم قانون الأحوال الشخصية، إذ أن هدفه الأساسي هو رد الشيء إلى أصله وإعادة التوازن المختل وذلك بالقصاص والتعويض عما لحق بالمجني عليه من ضرر أو أذى أو خسارة، جريا على مبدأ العين بالعين والسن بالسن، دون أخذ المصلحة العامة بعين الاعتبار (حسنين ١٩٦٧: ١٣٢-٣، ٢١٥-٦؛ Kennet 1925: 30; Murray 1935: 229).

الإجراء الوحيد الذي يمكن أن تتخذه القبيلة ضد من يسيئ لها كجسم اجتماعي هو الخلع، كما سنرى أدناه. كما يختلف القانون العرفي عن القانون الوضعي في اعتماده في إجراءاته ومرافعاته على الطقوس والممارسات الشعائرية. فنلاحظ بادئ ذي بدء أن المتقاضين يصوغون دعاواهم وحججهم بكلام مسجوع، وكذلك القاضي يصدر حكمه في العادة مسجوعا. فلو أردت مثلا أن تطلب من شخص أن يقول الحقيقة تخاطبه بهذه الصيغة: **حاطّها في شليلك، وما جا من حليلك، وفي بِشَرْك، وما جا من ذِكَرْك، بالولد الفالح والمال السارح، وفي البل زينات الحليب، والخيل نثّارات السبيب، وبالمِرِه وما تجيب**، أو بهذه الصيغة: **حاطّها لك بالفَرْش، وتصعَد للعَرش، تحلب البرغوث من قل الرغوث، ان كميتها تضرّك، وان اظهرتها تسرّك**. وللحصول على الاعترافات والدلائل وللتأكد من صدق أقوال الشهود فإنهم يلجأون إلى ممارسات لا تقرها الشريعة مثل **البشْعَه** ومثل اليمين المغلّظة التي يسمونها **الدين اللويّه قطّاع الذرّيّه** (حسان ١٩٨٧: ١٧١-٦، ١٩٣-٢٠٠؛ شقير ١٩١٦: ٤٠١-٢؛ عارف ٢٠٠٤: ٧٨-٨٠، ١٠٠-٥؛ عبادي ١٩٨٣: ١٢٢-٧، ١٣٧-٦٤؛ Burckhardt 1831/I: 121-31; Musil 1928a: 430). ومن أيمانهم التي يقسمون بها: **حلف الشمله والنمله والمسبّعَه والحزام** (Musil 1928a: 430). يقول بوركهارت وموزيل وزكريا وغيرهم في وصف حلف الشملة والنملة أنه عبارة عن دائرة تخط بالسيف وترسم داخلها خطوط متقاطعة ويوضع داخلها نملة وشملة، والشملة كيس يوضع على ضرع الناقة لمنع حوارها من رضاعها. ويدخل الشخص الذي يطلب منه القسم إلى داخل الدائرة ممسكا بسيف يُغرز في وسطها ويقسم القسم المطلوب منه (زكريا ١٩٨٣: ٢٦٧؛ Burckhardt 1831/I: 127-9; Musil 1928a: 430). ولتعزيز القسم في القضايا الخطيرة قد لا يكفي حلف المتهم لوحده بل لا بد أن يردد القسم معه عدد من عصبته الأقربين يتحدد عددهم بحسب خطورة القضية، وإذا لم يتوفر العدد الكافي من عصبة المتهم أقسم الموجودون أولا ثم يُقْسِم منهم مرة أخرى العدد الكافي لإكمال النصاب (Kennet 1925: 40-3; Murray 1935: 230-2). وللتأكيد على أن شهادته شهادة

حق وصدق يقول الشاهد أن الدافع وراء شهادته هو إظهار الحق وليس لأخذ الثأر أو لأجل المال: **لا غيظ شافيه ولا مالٍ راجيه الا حق الله مدّيه**. وللمدّعى عليه الحق في رفض شهادة الشهود وتحليف المدعي يمينا لو حلفها ربح الدعوى، وهذا خلاف القاعدة الفقهية: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

ويصف موزيل المسبّعه بأنها دائرة يخطها القاضي بخنجره ثم يخط قطرها ثم يخط داخل الدائرة خمسة خطوط تتقاطع مع قطرها ويطلب من الشاهد أو المتهم أن يدخل هذه الدائرة ويقسم اليمين بالإثبات أو الإنكار. ويؤكد موزيل على مدى الجدية التي يأخذ بها البدو هذا القسم ولا يلجأون له إلا في الحالات التي يتعذر فيها الحصول على أي بينة أخرى، وقد يطلب المدعي من المتهم أن يحلف اليمين عند قبر ولي من الأولياء، وقد يملي عليه أيضا صيغة اليمين الذي يقسم به (Kennet 1925: 40-1; Musil 1928a: 430). وحلف اليمين عادة سامية قديمة حيث جاء في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر الخروج "إذا أودع إنسان ثورا أو حمارا أو بهيمة أمانة، فمات أو تأذى أو سرق في غفلة يحلف صاحب البيت بالرب أنه لم يمد يده إلى ملك جاره فيقبل منه صاحبه اليمين ولا يأخذ تعويضا" (**التفسير التطبيقي للكتاب المقدس** ٢٠٠٢: ٦٢). أما **البشعه أولحسة النار** فهي معروفة ويرد ذكرها ووصفها في العديد من المصادر (حسان ١٩٨٧: ١٩٣–٢٠٠؛ عارف ٢٠٠٤: ١٠٠–٥؛ عبادي ١٩٨٣: ١٣٧–٦٤؛ Burckhardt 1831/I: 121-2, Murray 1935: 161)، ويلجأون لها عادة في القضايا الخطيرة لأن الحكم الصادر بموجبها حكم قطعي نافذ لا رجعة فيه، إما بالبراءة أو ثبات التهمة، ولذلك يقولون: **ما عقب النار معيار**، ويسمون من تثبت عليه التهمة بهذه الطريقة **موغوف** أو **وغيث**. والبشعة من الممارسات الشائعة عند الأقوام البدائية وتتخذ أشكالا مختلفة وتسمى بالإنجليزية trial by ordeal. ومن الأمثلة عليها أن البعض منهم يرمون المتهم في الماء فإن غرق ثبتت عليه التهمة ونال العقاب وإن كان بريئا قذفه الماء. وأحيانا يؤدون أقسامهم عند الينابيع التي يشربون من مائها فإن كان القسم كاذبا تسمموا من الماء وإن كان صادقا لا يصيبهم أذى. وكان العبرانيون إذا شك أحدهم في زوجته أجبرها على شرب جرعة من الماء المقدس.

ويلاحظ أن الكثير من الدعائم المادية التي يستندون إليها في تأكيد هذه الأيمان ذات صلة بالأعضاء التناسلية ورموز الخصب والنماء والتكاثر، مثل الشملة التي سبقت الإشارة إليها، ومثل قسم الحزام الذي يتلفظ به الشخص بينما هو يمسك بحزام غريمه والذي يرمز إلى عضوه التناسلي، أداة الإخصاب. وهذا شبيه بما نقرأه عن عرب الجاهلية حيث كان الرجل يعوذ بالرجل ويتحرم به فيأخذ بحقوه ويقول: عذت بحقوك، وهذا معنى قولهم: مَعْقِد الإزار (سكري ١٩٦٣/١: ٣٤٩). وهذا يذكرنا بما جاء في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين أنه لما شاخ النبي

إبراهيم وكان لاجئا في بلاد الكنعانيين لم يشأ أن يزوج ابنه إسحاق من بنات الكنعانين وإنما أوصى رئيس رعاته أن يذهب إلى عشيرته في أرض حاران ليخطب لابنه زوجة من أبناء عشيرته والتي هي رِفْقَة ابنة بَتُوئيل ابن مِلكَة زوجة ناحور أخي إبراهيم. ولكي يستوثق إبراهيم أن خادمه سينفذ وصيته قال له ""ضع يدك تحت فخذي فأستحلفك بالرب إله السماء والأرض أن لا تأخذ لابني زوجة من بنات الكنعانيين اللذين أنا مقيم في وسطهم بل تمضي إلى بلدي وإلى عشيرتي وتأخذ زوجة لابني إسحاق" (التفسير التطبيقي للكتاب المقدس ٢٠٠٢: ٦٢).

وهناك نوع آخر من القسم يؤديه الشخص وهو ممسك بعشبة في يده ويردد: **وحياة هالعود والرب المعبود والكاذب ما له مولود** أو **وحق هالعشبه الملويّه والكاذب ما له ذرّيّه**. وقد يقسم وهو ممسك بدلة القهوة نظرا لما تحمله القهوة وآنيتها من رمزية عند البدو، أو يقسم بجوار بئر ماء نظرا لأهمية الماء في حياتهم (Murray 1935: 232). والقسم عندهم شأنه خطير، خصوصا تلك الأيمان التي ذكرناها، لذلك لا يجوز إجرائها عند مضارب البيوت بل عادة ما يكون ذلك في مكان بعيد عن البيوت (زكريا ١٩٨٣: ٢٦٨). وهم يخشون هذه الأيمان ويتحاشونها ويعتقدون اعتقادا جازما أن من يحلف كاذبا سوف تحل به عقوبة شنيعة في هذه الدنيا كأن تنقطع ذرّيته أو يهلك ماله أو يجدب موطنه وتغور مياه الآبار فيه (حسنين ١٩٦٧: ٣٢٠–١). ويلاحظ هنا أن الجزاء أو العقوبة التي يتوقعها البدوي شرور دنيوية عاجلة وليست أخروية آجلة، مما يشير إلى تغلب الوازع المادي البراغماتيكي على الوازع الروحي الغيبي، أو كما يقول مصطفى محمد حسنين فإنهم "يحصرون تفكيرهم في أثر اللعنة العاجل المادي الذي يقع على الفور وينال الكاذب الآثم أو ذريته. وأما الخوف من غضب الله، كمسألة معنوية، فليس لها مكان واضح في ذهن رجل العشيرة" (حسنين ١٩٦٧: ٣٢١). وفي هذا دليل آخر على أن القانون العرفي قانون وضعي يختلف عن الشرائع السماوية.

وللملابس أيضا دور شعائري في أيمانهم ومرافعاتهم. فلكي تعلن براءتك أو عدم تحملك لأي مسؤولية تقوم بنفض جيبك أو طرف ردائك، وهو ما يسمونه **نفض الجيب** أو **نفض الشليل**، وكأنك تريد أن تبعد هذا الأمر أو القضية من أن تلتصق بك أو تتماس مع جسدك الذي يرمز لشخصك وذاتك. وقد تنشر طرف عباءتك أو ردائك أو ردنك أمامك على الأرض لكي تؤكد براءتك أو صدق إفادتك واستعدادك لإحضار العدد المطلوب من الشهود على ذلك (Musil 1928a: 428). وهذه المعلومة يوردها موزيل وغيره من الباحثين والكتاب ولا يبينون ما ترمز إليه. أعتقد أن الردن أو الشليل أو طرف الرداء الذي يفرشه أحد المتقاضين على الأرض يرمز للفراش الذي يدل على كرامة الشهود الذين سيحضرهم وعلو مكانتهم، ولهذا السبب لا يليق تجليسهم على الأرض ولا بد من تجليسهم على فراش حيث لا يجلس على الغبراء إلا قليلي الشأن

الذين لا تقبل شهادتهم أو لا تزن ما تزنه شهادة أولئك. وإذا أردت أن تدخل على شخص وتطلب حمايته تؤكد طلبك بعقد عقدة في ذؤابة عمامته أو طرف ردنه (حسان ١٩٨٧: ٢٣٠)، ويسمى ذلك الشخص الذي طُلبت حمايته وفق تلك الصيغة **مْعَقود الردن** (Smith 1889: 316-7). واعتقد أن العقد هنا يرمز إلى ما نقول له بتعابيرنا الحالية ربط مصيره بمصيره. ومرافعاتهم القضائية مليئة بمثل هذه الإشارات الجسدية والشعائر الرمزية التي تؤكد معاني اللغة المحكية أو تقوم مقامها أحيانا.

وتبدأ الإجراءات القضائية بين الخصمين عادة بأن يرسل المدعي أو الدائن إلى المدعى عليه أو المدين وفدا من الوجهاء وسراة الناس يطلبون منه أن يوافق على حل النزاع بالتراضي عند أحد القضاة. وإذا لم يتجاوب مع طلب الوفد وتكرر منه الرفض والمماطلة لجأ المدعي إلى **وساقة** حلاله، أي حجزه حجزا احتياطيا ليرغمه على القبول بالتقاضي والإذعان للحق. وإذا كان المدعي ضعيفا لا يستطيع أن يوسق حلال خصمه فإنه يلتجئ إلى أحد المشائخ من ذوي السطوة والجاه لتنفيذ ذلك بالقوة (قسوس ١٩٧٢: ٢٣؛ حسنين ١٩٦٧: ٢٩٦، ٣٠٧، ٣٣٧؛ راوي ١٩٤٩: ٣٤٤). يصف أحمد وصفي زكريا **الوساقه** بقوله:

> إذا تمنع المدين يعاوده الدائن بإرسال وفد ثان وقد يرسل وفدا ثالثا، والمقصود بذلك أن يبدأ الدائن مدينه بطلب حقه طلبا مجردا حتى يعرف رأي خصمه في موضوع الدعوى، فإذا أذعن المدعى عليه لمقترحات الوافدين ضرب للوفد ميعادا في يوم بعينه، ليجتمع فيه إليهم في بيت أحد الشيوخ وهذا ما يسمونه (الوجه) للاتفاق معهم على تعيين القاضي الذي سيختصم المدعيان إليه، أما إذا رفض المدعي مقترحات غريمه التي حملها الوفد حول التقاضي يلجأ صاحب الحق إلى طريقة (الوساقة) إن كان قويا، وإلا فإنه يستجير بأحد الزعماء الأقوياء طالبا إليه أن ينوب عنه في إرغام خصمه على الرضوخ للحق فإن قبل المستجار به بعث إلى المدعى عليه وفدا يكلفه إلى مقاضاة دخيله، فإن أصر على رفضه استعمل الزعيم قوته في إكراه المدعى عليه وذلك بالإغارة على ماشيته وأخذ ما يتيسر أخذه منها والاحتفاظ به إلى أن يذعن للطلب الواقع (زكريا ١٩٨٣: ٢٦٢).

ولهم طقوس وشعائر خاصة يلجأون لها حينما يريدون تحديد طبيعة القضية والقاضي المختص والمخول للبت فيها، والذي ليس من الضروري أن يكون من نفس القبيلة، مما يؤكد ما سبق أن ألمحنا إليه من أن السلوم والأعراف القبلية تشكل إرثا مشتركا بين كل القبائل. من هذه الطقوس ما يسمونه **دفن الحصا وقرط الحصا**. يدفنون الحصا إذا تم الاتفاق على حل الخلاف فيما بينهم قضائيا أمام أحد القضاة المختصين فيدفنون حصاة لكل مسألة يتفقون على التقاضي حولها ويحذفون "يقرطون" حصاة عن كل قضية يريدون استثناءها وعدم طرحها أمام القاضي. وإذا وصلوا إلى مرحلة اختيار القاضي يتم ذلك عن طريق ما يسمونه **خط الخطوط** بحيث يخط المدعي خطا ويسمي القاضي الذي يختاره ثم يخط المدعى عليه خطا ثانيا ويسمي قاضيا آخر يختاره هو ثم يعود المدعي ليخط خطا ثالثا ويسمي قاضيا ثالثا. بعد ذلك يقوم المدعى عليه بإسقاط واحد من القضاة الثلاثة بواسطة إطالة الخط

الذي له أو شطبه ويعمل المدعي مثل ذلك بحيث لا يتبقى إلا واحدا من القضاة الثلاثة هو الذي ينظر في القضية. وقبل شطب المدعي أحد الخطوط الثلاثة يطلب من المدعى عليه أن يسمي كفيله وبالمثل يطلب المدعى عليه قبل شطب أحد الخطين المتبقيين من المدعي أن يسمي كفيله (حسان ١٩٨٧: ١٤٢-٥؛ عارف ٢٠٠٤: ٦٣، ٧٦-٧؛ عبادي ١٩٨٢: ٣٠١-٢). ويمكن أن تتم العملية بطريقة معاكسة، أي أن يكون الاختيار الأول للمدعى عليه والمدعي يليه. ويتم اختيار القضاة حسب نوع القضية وحسب اختصاصهم. وبعد التقاضي لو لم يرض من يخسر القضية بالحكم "الفَرْض" فإن بإمكانه الاستئناف أمام القاضي الذي سبق وأن شطب اسمه من بين القضاة الثلاثة. وإذا تطابق حكم هذا القاضي الأخير مع حكم القاضي الأول فإن الحكم يصبح نهائيا لا مجال فيه للاستئناف. لكن لو كان الحكم مخالفا وفي صالح من خسره في المحاكمة الأولى فإن الخاسر في هذه المحاكمة الثانية والذي كان رابحا في المحاكمة الأولى له الحق في الاستئناف أمام القاضي الذي سبق وأن شطب اسمه من بين القضاة الثلاثة، وهذه آخر فرصة لأي من الطرفين للاستئناف. ويسمون الاستئناف **سوم الحق**. وفيما لو اختلف الخصمان في تعيين القاضي الذي يحكم في قضيتهم يرجعان إلى أحد قضاة **المعترضة**، وهؤلاء وظيفتهم تحديد طبيعة القضية وتحديد القاضي المخول للنظر فيها. وهذه الإجراءات الدقيقة والمعقدة فصل القول فيها كل من أحمد وصفي زكريا (١٩٨٣: ٢٦٢-٣) وأبو حسان (١٩٨٧: ١٤٣-٤، ١٤٧-٩).

وتفتتح القضية بأن يقدم المدّعي ادّعاءه، وهذه تسمّى **مورّده** مع الاحتفاظ لنفسه بالحق في تقديم حجج إضافية تسمى **مسنَده** وذلك بعد سماع حجة الخصم، ومن هنا جاء قولهم أن **المدعي صاحب حجتين** (حسان ١٩٨٧: ٤٠٣-٤). ومن يكسب القضية يسمّى **فالج** والخاسر **مفلوج**. وإذا تخلف أي من الخصمين عن حضور الجلسة بدون سبب وجيه خسر القضية. ويسمون المدعي **طالب** أو**طارد** والمدعى عليه **مطلوب** أو **مطرود** والدعوى **طْلابه** وجمعها **طلايب**. وللنظر في الدعوى يتقاضى القاضي جعلا يسمونه **رزقَه** يدفعها إما من يخسر القضية وفي هذه الحالة تسمى **رزقه باطوليّه** أو يدفعها من يكسب القضية وتسمى في هذه الحالة **رزقة المسترّ**، والذي يحدد ذلك نوع القضية والاتفاق بين الطرفين (قسوس ١٩٧٢: ٤٧). كما يتقاضى الشاهد الذي يتجشم العناء للمثول أمام القاضي أتعابا تعوضه عما يلاقيه في سبيل ذلك من مشقة وتعطيل مصالحه، أو كما يقولون **بدَل عنوته**. ولكن في هذه الحالة لا بد للشاهد من شاهد آخر من أعيان قبيلته أو شيوخها يزكيه، إذ لا تقبل شهادته إلا إذا كان، كما يقولون **تِقِيّ نقيّ، تدوّر على العيب فيه ما تلتقي**. والشهود الذين يزكون الشهود الأساسيين في حالات القتل يسمونهم **نقالة النعش**، وهم أربعة شهود وأربعة يزكونهم، حسب ما أفادني بندر ابن سبهان، أحد عوارف عبده من شمر، الذي قال لي:

الرّقبه، الى ذْبِح الرجّال ولا عند اهلُه معرفه من اللي ذبحه، بس متِهْمين هالرجل انه ذبَح رجّالهم، ما يرضُّونه الا على اليمين، الشهود ما يقبلون الا لو ان راعى الرقبه اللي مذبوح رجّالُه يطلب من هالرجّال الشهود، الشهود ثمانيه: اربعه شهود واربعه نقّالة النعش، يزكّونهم. هذا فصل الرقبه"

وقد أخطأ أبو حسان (١٩٨٧: ١٨٠) في تفسيره لمصطلح **نقالة النعش** بأنهم الشهود الذين يردون لإثبات ما قاله شخص آخر وهو على فراش الموت. وكلمة **النعش** في عبارة **نقالة النعش** هي التي أوهمت أبا حسان، لكن المقصود بالعبارة أن عددهم أربعة لأنك تحتاج إلى أربعة أشخاص لحمل النعش. وعبارة **نقالة النعش** مثل عبارة **نقالة العرقاة** التي تطلق، كما أفادني ابراهيم ابن سعيّد الهمزاني، عادة على أربعة رؤساء متساوين في المكانة والمقام وفيما يتحملونه من أعباء ومسؤوليات. والعرقاة عبارة عن عصاتين متقاطعتين على شكل صليب له أربعة أطراف وكأن كل رئيس من الرؤساء يحمل طرفا من هذه الأطراف الأربعة مما يوزع الحمل عليهم بالتساوي.

وتنتهي مسؤولية القاضي العشائري بمجرد إصداره الحكم في القضية المعروضة أمامه، فليس لديه من السلطة ما يستطيع به أن ينفذ حكمه. كذلك شيخ القبيلة سلطته محدودة وليس لديه من الصلاحيات التنفيذية ما يمكنه من إلزام المتقاضين بتنفيذ حكم القضاء، ومهام شيخ القبيلة أصلا لا تشمل تطبيق القانون وحفظ الأمن وحماية أفراد القبيلة من التعديات. ولذلك قلما تتضمن أحكام القضاء العرفي أوامر بالاعتقال والحبس أو العقوبة البدنية، حيث لا توجد سلطة لتنفيذ مثل هذه الأحكام. الأصل في القضاء العرفي التعويض الذي يهدف إلى إصلاح الخطأ وتصحيحه وليس العقوبة التي تقع على حرية المخطئ أو إيذائه في جسده وإيلامه بقصد زجره وتأديبه (حسنين ١٩٦٧:١٣٢-٣، ٢١٥-٦). وحتى لو تضمن الحكم عقوبة بدنية فإنها نادرا ما تنفذ وإنما تستبدل بتعويض مالي يدفع لصاحب الحق الذي ناله الضرر. وهناك تعويضات محددة ومعروفة لكل صنف من أصناف العقوبات البدنية، مثلما أن هناك أيضا تعويضات محددة ومعروفة لكل أنواع الإصابات البدنية والجروح التي يعرفها ويقدرها قضاة مختصون يسمونهم **القصاصين** (حربي ١٤١٦: ١٢١-٨؛ حسان ١٩٨٧: ٦٧؛ حسنين ١٩٦٧: ٣٢٧؛ قسوس ١٩٧٢: ٥٢؛ Murray 1935: 236). ولهؤلاء القصاصين طرق خاصة في تقدير قيمة ما يلزمون المتهم بدفعه عند ارتكابه لجريمتي الضرب والعاهة المستديمة. ففي حالة الجرح الذي لم ينشأ عنه تعطيل عضو يقدرون التعويض بأن يقف المجروح أمام القاضي ثم يبتعد إلى الوراء حتى تتوارى معالم الجرح، ويقدر القاضي التعويض بالنسبة إلى طول أو قصر المسافة التي وقف عندها المجني عليه واختفت عندها آثار الإصابة أو التشويه (حسنين ١٩٦٧: ٣٢٧؛ راوي ١٩٤٩:٣٥٦؛ Murray 1935: 235). وهذا ما تبينه هذه السالفة التي سجلتها من خضير الربوض في منطقة الجوف:

هذا شوط غْرسوه الفدّاغه ومْلكوه وْعقب خذوه الثابت ثمن راس مره وقَرْنَه. هذا شوط هاللي بحدريّه الغريّب هذا عين لْقوَه عيال القَنْيَاني من الفدّاغه، قوم ابن وتيد وغْرسَوَه، هاللي يقال لهن القَنا، نْخَلات يقال لهن القنا، على العين. يوم غْرسَوَه يا مير الشوطي من آل ثابت قوم الحَدَب راعي غنم بْشنَق الضلع. يوم اطلعن الغرايس عقب كم سنه يا مار قنْيانهن بالبطحا تَوّهن مرْتَفْعات. طَبّن غنم الشوطي، معزاوه، ولقَن البسر وقامن ياكلنُّه. يوم جَوا من باكر عيال القَنْيَاني يسرّون عيونهم بنْخَلاتهُم ليا هذا اثر المعزا بسيل العين آكلات البسر. قال شف هذي غنم الشوطي ثري اللي راتْع بهذا يصلّح معزاوه بنْخَلاتنا. يوم فطن يا مير هذي المعزا جايّات يْتَراكضَن. واقهروهن ليا هذا الشوطي جايٍّ يبي معزاوه. قال ثَريك يالشوطي حاطٍّ نْخَلاتنا مَفْلى لمعزاك. وهم يَضرْبونُه. يا مار الشوطي معه بنتٍ لُه وهي تجي تركض تَفْزَع لابْوَه. واضْرِبْوَه وامصعوا قَرْنَه واقصْموا سنَّه. وايتك يالشوطي وازعج القرن والسن للحدب يم السالمي فوقِيّ الجبل. وايتك يالحدب والعجرّش صوّال يبون القنياني. وايتك يالقنياني وفزّع لربعه ابن وتيد. يوم جت السلفين يتبارن ويصيرون بنايْلات اللي بهن التفيّهي. ويجيهم الصديد وينزل بينهم، فرّاع. وقال الحق، الحق. قالوا الحق. من هو الحق؟ حق المقلّدات؟ هكالحين طواغيت البدو. حق المقلدات عند ابن عْجيْر من الصايح من الصبحي قوم الصديد. المقلدات الخيل والنسا، حقِّهن عند ابن عجير، هو اللي يقضي بهن. وعند عنزه، ضنا عبيد، حقهن عند ابن غبين، والجلاس ابن جندل. وتقاضوا عند ابن عجير. الحدب معه الثابت رَبْع الشوطي وابن وتيد معه الفداغه، هل البلها، ربع القنياني. قال ابن عجير حق النسا كايد. قالوا انطنا حقِّهن. قال تاقف البنت اللي مَمْصوعةٍ سنَّه تاقف عند الرجال والرجال متمجلسين وتمشي على قفاه فاتحةٍ براطْمَه لاجل يشاف افمه ما زال الرجال يشوفون ثرْمتَه وهي تمشي على قفاه فكل خطوه، خطْوةٍ ثنيّة ابل وخطوة ثنية خيل. قالوا آل ثابت حقّنا ورضينا به. الراس؟ قال الراس يْحَطّ بين رجلين واحد معه مخاط وواحد معه ابره وينظمون شعر البنت اللي يخش بالمخاط من الشعرات ناقه واللي ينفذ بالابره نْعَجه. قالوا حقنا ورضينا به. هذا حرص على النسا. قالوا ياقنياني لعن ابوك ما حولك صبح. قال القنياني الشعيب من مفيضه ليا محيره للشوطي وفكّونا منه. وانزله الشوطي وصار اسمه شوط.

والبدو يسمون قضاتهم **عوارف** (لمعرفتهم بعوائدهم) أو **مخاطيط** (لأنهم يختارون القاضي عن طريق خط الخطوط)، أو، بصيغة المفرد، **المِرْضي** (لأن حكمه يرضى به الجميع) أو **الفرض** (لأن حكمه يفرض الجزاء والعقوبة على الجاني). ونجد في القضاء العرفي قضاة مختصين لكل منهم مجال محدد يقضي فيه، فهناك مثلا قضاة يسمونهم **مناقع الدموم** الذين من اختصاصهم قضايا القتل والإصابات البدنية والجروح، وهناك قضاة **المناشد** الذين من اختصاصهم قضايا العرض والتعديات الجنسية، أما قضاة **المقلّدات** فيختصون في قضايا الخيل والنساء (حسان ١٩٨٧: ٩٦–١١٩، ١١٥–٩؛ شقير ١٩١٦: ٣٩٨–٤٠٠؛ عارف ٢٠٠٤: ٥٩–٦٤؛ عبادي ١٩٨٢: ٢٦٥–٧٢). والقضايا المستجدة التي لا يوجد لها سوابق لا يخوّل للحكم فيها إلا القضاة الذين لديهم صلاحيات قضائية وتشريعية ومن صلاحياتهم تأسيس سوابق جديدة، ويسمون هذا النوع من القضاة **مناهي** أو **مقاطع الحق** أو **قضاة القلطه** (حسان ١٩٨٧: ١١٠؛ حسنين ١٩٦٧: ٣٢٥؛ عارف ٢٠٠٤: ٥٩–٦١؛ عبادي ١٩٨٢: ٢٦٤–٥؛

قسوس ١٩٧٢: ٢٢-٣، ٣٠). والقضية التي لا سابقة لها يقولون عنها إنها **تالفه ما لها سالفه أو هميله ما لها مثيله**.

وعلى خلاف القاضي الشرعي الذي يبني أحكامه وفق قواعد فقهية يرجع إليها في المتون المكتوبة، فإن القاضي العرفي غالبا ما يعتمد على الحدس والبصيرة وذكائه الفطري وما يختزنه في ذاكرته من سوابق وسوالف ويقيس الدعوى الحاضرة على دعاوى سالفة. ومهمة القضاء العشائري تتطلب أن يتمتع القاضي بالذكاء والفطنة والدهاء وتوقد الذهن وسرعة الخاطر ليستطيع أن يحكم حكما فصلا في الخصومات والقضايا المعقدة التي تعرض أمامه أو يوجد لها حلول توفيقية أو وسائل للإصلاح بين الخصوم. العارفة رجل يتمتع بقدرة خارقة على قوة الملاحظة وسرعة الاستنتاج وتلخيص الحكم في كلمات قليلة مسجوعة سهلة الحفظ حمالة أوجه، ولذلك فإن وظيفته تشكل امتدادا لوظيفة الكاهن والحَكَم في عصور الجاهلية. وهذا مما جعل البعض يتوهم أن العارفة له صاحب من الجن يُنبؤه بالأمور الغيبية ويسمونه **صاحب السر**. وهناك الكثير من القصص والأشعار التي تشيد بذكاء العوارف والقضاة وترفعهم إلى مرتبة العرافين والكهنة (حربي ١٤١٦: ١٥٢-٦١، ٢٣٥؛ حسنين ١٩٦٧: ٢٩٠، ٣٢٥-٦)، يقول الشاعر العربي:

ومنهم حكم يقضي فلا يُنقض ما يقضي

ويقول شاعر متأخر:

حلحيل لى ابدا حِجّةٍ من شفاياه يبتَع كما سيفٍ بنارِه شرارا

ومهام العوارف لا تختلف كثيرا عن مهام حكماء القبائل في العصور القديمة والذين ذكرت منهم المصادر من قبيلة قيس عامر بن الظرب ومن ثقيف غيلان بن سلمة الثقفي ومن تميم الأكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة والأقرع بن حابس أبو عيينة وضمرة بن ضمرة، وغيرهم كثير. كما عرف العصر الجاهلي حكيمات من النساء اشتهر منهن خصيلة بنت عامر بن الظرب وهند بنت الحسن الإيادية. وأكثر حوادث التحكيم في الجاهلية تتعلق بالمنافرة بين الأشراف، وسموها منافرة لأن صيغتها تبدأ بعبارة "أنا أعز منك نفرا". ومن أشهر المنافرات تلك التي جرت بين عامر بن الطفيل مع علقمة بن علاثة بن عوف وحكم فيها هرم بن قطبة بن سنان الفزاري. ويلاحظ أن هذه المنافرات لا تختلف في إجراءاتها وأحكامها وصيغها اللفظية المسجوعة عن المرافعات التي مرت بنا في القضاء العرفي. قال علقمة في منافرته لعامر: إني لبر وإنك لفاجر، وإني لولود وأنك لعاقر، وإني لواف وأنك لغادر. فأجابه عامر: أنا أسمى منك سمّه، وأطول قمه، وأحسن له، وأجعد جمه، وأبعد همه. وقبل أن يحكم بينهما هرم بن قطبة طلب منهما موثقا، أي كفيلا، يطمئن إليه أنهما سيقبلان حكمه ويسلما له. وقد نقل الألوسي هذه المنافرة من المصادر القديمة، وهذا حكم هرم ننقله عن الألوسي (١٣١٤/١: ٢٨٨-٩):

فأقاما عنده أياما ثم أرسل إلى عامر فأتاه سراً فقال: قد كنت أحسب أن لك رأياً وأن فيك خيراً، وما حسبتك هذه المدة إلا لتنصرف عن صاحبك، أتنافر رجلاً لا تفخر أنت ولا قومك إلا بآبائه فما الذي أنت به خير منه؟ فقال عامر: نشدتك الله والرحم أن لا تفضل علىّ علقمة فوالله لئن فعلت لا أفلح بعدها أبداً هذه ناصيتي فاجزُزْها واحتكم في مالي فإن كنتَ لابد فاعلا فَسَوِّ بيني وبينه. فقال انصرف فسوف أرى من آرائي. فانصرف عامر وهو لا يشك أنه ينفره عليه، ثم أرسل إلى علقمة سراً فقال له ما قال لعامر، وقال له: أتفاخر رجلاً هو ابن عمك في النسب وأبوه أبوك، وهو مع ذلك أعظم منك غناء وأحمد نقاء، وأسمح سماحا، فما الذي أنت به خير منه؟ فرد عليه علقمة ما رد به عامر وانصرف وهو لا يشك أنه ينفر عامراً عليه، فأرسل هرم إلى بنيه وبني أخيه وقال لهم: إني قائل فيهم غداً مقالة فإذا فرغت فليطرد بعضكم عشر جزائر فلينحرها عن علقمة وليطرد بعضكم مثلها فلينحرها عن عامر وفرقوا بين الناس لا يكونوا بينهم جماعة، ثم أصبح هرم فجلس مجلسه وأقبل عامر وعلقمة حتى جلسا فقال هرم: إنكما يا ابنى جعفر قد تحاكمتما عندي وأنتما كركبتي البعير الأَدْرَم الفحل تقعان الأرض وليس فيكما واحد إلا وفيه ما ليس في صاحبه، وكلاكما سيد كريم، ولم يفضل واحداً منهما على صاحبه لكيلا يجلبَ بذلك شراً بين الحيين ونحر الجزر وفرق على الناس، وعاش هرم حتى أدرك خلافة عُمَرَ. فقال: يا هرم أي الرجلين كنت مفضلا لو فعلت؟ قال: لو قلت ذلك اليوم عادت جذعة ولبلغت شعفات هَجَر. فقال عمر: نِعْم مُسْتَوْدَعُ السرّ أنت ياهرم مثلك فليستودع العشيرة أسرارهم.

ولا يخفى ما تتطلبه النزاعات القضائية وكذلك فض النزاعات من رباطة الجأش وسرعة البديهة وحضور الحجة وذرابة اللسان وقوة البيان والقدرة على الاقناع. لذا تعتمد المرافعات القضائية وصياغة الدعاوى والحجج والأحكام على المهارة في توظيف اللغة. من هنا كانت تنمية المهارات القولية والكلامية في المجتمعات القبلية لا تقل شأنا عن تنمية المهارات القتالية وكانت الفصاحة والبيان من أهم مقومات الرئاسة والسيادة وكانت مكانة الشعراء والخطباء لا تقل عن مكانة الفرسان. إن غياب السلطة المركزية وطبيعة الحياة البدوية بعدم استقرارها والتنظيم القبلي بهشاشته وتقلبه تفرض على الفرد أن يعيش في حالة نزاع لا ينقطع، ولا نقصد هنا النزاع المسلح فقط وإنما أيضا النزاع القضائي على الموارد والمراعي والحلال والأعراض وغير ذلك من الحقوق المادية والمعنوية والقضايا الخاصة والعامة. لذا نجد البدوي، إضافة إلى شجاعته الحربية، يمتلك شجاعة أدبية وحضور حجة وطلاقة لسان لكثرة ما اضطر إلى الدفاع عن حقه في المجالس وعند عوارف العرب.

نظرا لهذه الاعتبارات نشأت علاقة وثيقة بين الشعر والقضاء العرفي بحكم ما يتمتع به الشعراء من مهارات لغوية، مما يوضح لنا جانبا آخر من جوانب الارتباط والتداخل، كما سبق وأن أشرنا، بين العرف القبلي وبقية جوانب الثقافة القبلية ومؤسسات المجتمع القبلي. في حديثنا عن شعر القلطة قلنا إنها تتألف من ظفائر مجدولة من الادعاءات والنقائض، ومفهوم الفتل والنقض من أهم المفاهيم في شعر القلطة. ويعني ذلك أن أحد الشعراء ينشد أبياتا محكمة السبك كظفائر الحبل المفتول

بقوة يضمنها بعض الرموز والحجج والدعاوى أو يثير قضية ضد خصمه مدعمة بالحجج والبراهين. وتكون مهمة الخصم أن يقلب السحر على الساحر وينقض فتل الشاعر الأول وذلك بفك رموزه وحل ألغازه أو تفنيد ادعاءاته ونقض حججه وقلب براهينه بحيث تكون ضده لا لصالحه. وقلنا إن شاعر القلطة يعتمد على رصيده المعرفي وما يختزنه في الذاكرة من معلومات تاريخية وجغرافية ليعزز موقفه الدفاعي أو الهجومي، وأنه يحتاج إلى الحضور الذهني وسرعة البديهة وعمق الإدراك والبصيرة واستخدام اللغة المجازية المبهمة لتغليف المعنى وتعجيز الخصم. بل إن شعراء القلطة يشبهون أنفسهم بالخصوم الذين يشتبكون في نزاع قضائي "دعوى شرعيه"، كل منهم يحاول، بكل ما أوتي من قوة العارضة وسرعة البديهة وسعة الحيلة، أن يبرئ ساحته ويثبت التهمة ضد خصمه. لذا لا بد لأبياته أن تصيب الهدف وتشكل ردا مناسبا "غطا، خِصْمَه" لأبيات الخصم.

ولا ننس أن من أهم وظائف الشاعر في المجتمع القبلي هي توظيف قصائد الفخر والمدح والهجاء للدفاع عن شرف القبيلة وقيمها وحث أبنائها على عدم التهاون في حقوقهم. والكثير من الشعراء يفتخر بصموده وبرباطة جأشه التي تمنحه الحضور الذهني فلا يرتبك ولا يزيغ ذهنه وتضيع حجته إذا احتدم النزاع بين الخصوم الألداء وعلت أصواتهم وبدأوا يتراشقون بالحجج البليغة والأدلة الدامغة والبراهين مثل ما يتراشق الفرسان في ميدان المعركة بالحراب والرماح. وهذا ما عناه الشاعر العربي سالم بن وابصة في قوله:

ومـوقفٍ مـثل حـد السـيف قـمتُ بـه ... أحـمي الذمـار وترمـيني به الحـدَقُ
فـمـا زَلِقْتُ ولا أبديت فـاحـشـة ... إذا الرجـال على أمـثـالهـا زلقـوا

ومثله قول الشاعر عامر الخصفي المحاربي يمدح قومه:

يقـوم فـلا يعـيـا الكلام خطيـبُنا ... إذا الكرب أنسى الجِـبْسَ أن يتكلمـا
فـمـا يسـتطيعُ الناس عـقـدا نشُـدُّه ... وننقـضُـه منهم وإن كـان مـبـرمـا

ويقول منيف ابن فتنان القحطاني:

الحق مـا يدّيه ضـحك بالانيـاب ... والرقص مع رقّـاصـةٍ يرقـصن
ياكـون من عـينه كـمـا صَلُو مـشـهـاب ... أو لـولـبٍ يوم الحـجـج يِفْـتَـلَـنّ
أخـاف من هرجـة عـدوٍّ وشـذّاب ... في مـجـلسٍ ياتي برمح المطنـي

ويقول شديّد الحثري العصيمي:

مـا انيب خِـمْعٍ فـيـدته نومـة الضـحى ... ولا من رخـومٍ طيـبـهـا مع قـريبـهـا
من الاد عـمٍّ كل مـا جـا طلابه ... تِفَـرَّع الهـرجـه وتفلِج طليـبـهـا

إلا أن دور الشاعر لا يتوقف عند حد الدفاع عن مصالح القبيلة بل إن الكثير من القضايا المستعصية يتم البت فيها طبقا لأبيات من الحكمة قالها أحد الشعراء وشكلت بذلك سابقة قضائية. ومن الأبيات التي أصبحت في عداد الأحكام التي

تشكل سوابق قضائية البيت التالي لخلف ابو زويد الذي يصدر فيه حكما أنه في حالة وجود ضيف وجار في نفس القطين واعتدى واحد منهما على الآخر فإن هذا لا يعتبر تقطيع وجه وليس من مسؤولية صاحب الضيف أن يثأر لضيفه ولا لصاحب الجار أن يثأر لجاره، كما جرت العادة لو كان المعتدي على الضيف أو على الجار من أهل القطين نفسه، وإنما تعرض المسألة على القضاء:

لى صار لك ضيفٍ وخالف على جار عز الله انك طالعٍ من سَوادَه

ومن أبيات الشعر الفصيح التي يستشهد بها قضائيا قول زهير بن أبي سلمى:

وإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

وكثيرا ما تحل النزاعات وتسترد الحقوق عن طريق الشعر بدلا من اللجوء للمحاكم العرفية، كأن ينظم الشاعر قصيدة مؤثرة ينبه فيها الخصوم إلى مغبة النزاع وفائدة الصلح وتسوية الأمور بالطرق الودية التي لا تؤدي إلى شق العصا، أو أن ينظم الشاعر إذا كان هو صاحب الحق قصيدة عصماء يوجهها لخصمه يمدحه فيها ويطلب منه أن يتحلى بالشيمة وأن يوفيه حقه ويرد له اعتباره (فهيد ١٩٨٣: ١٨٠؛ عقيل ١٩٨٦/٤: ١٥٦؛ رشيدي ١٩٨٩ : ١٦١)، أو أن يطلب من شيخ القبيلة أو من وجهائها وفرسانها أن يتوسطوا له لدى خصمه لاسترداد حقه، وهذا ما توضحه السالفة التالية التي سجلتها من عسل ابن ذايد الرمالي:

> رَبّع جد خليف ابن مزيريب هذا مع الروله، ابن مزيريب غْفيلي من الجرذان. يوم أقْفَى منهم، من الروله، تْبِعُه قومٍ منهم وْخَذَوا نياقُه، اباعرٍ طيّبِه. وهو على نياقه عطوى من الروله، أنت يابن مزيريب، وعيّوا بهن. عليهن عطوى يعني عليهن إتَّق صاحب، بوقةٍ باقوهن الروله، ويا قابلوا عند الرجال بدرب الحق يدَّن، بسلوم العرب. ايتهم يابن مزيريب، ايت الروله يبي نياقُه وعيّوا بهن، ايتهم وعيّوا بهن. ولْيا مير اول كل سنجاره تْزَكّي بموقق، يزكّيهم اوّل ابن علي وعقبٍ ابن رشيد. ويعطونُه سنجاره اباعر، عطايا، سنجاره عَطَوا ابن مزيريب. جْمَعوا له جماعته هكالبل بدَل نياقُه. قال: هذي مقبوله وحط مَعَه له راعي، واركب وانحر الرمال بْجبّه. ونوّخ عليهم. ويبشّرونه يوم الفى أربعين رَجِل، أبشر بالعطيّه، أبشر بالعطيه. قال: انا جْمَعوا لي شمر قبلكم اباعر مير انا ابي لي وضحٍ أحطّهن على كبدي، ابرد بهن كبدي عن نياقي. قالوا: وضح والله ما عندنا وضح. وقم يابن مزيريب وانحر ماجد ابن فضل أخو طلال ابن رمال، جدّ جدّي. وانحَرُه الصبح ويبَشّرُه ابن رمال، قال له: يالله حيُّه، أبشر بالعطيه. قال: يدوم راسك ياماجد. يوم قَعَد عندُه واسقاوه هكاللبين. قال: اقول. قال: آه. قال: مقبولةٍ عطيّتك ومافوره، أنا ابي جاهك ووجاهك ياماجد وابي لسانك، أنا نياقي عليهن عَطْوى، ومَفْرودٍ من نياقي يسوى عشر نياقٍ من نياق هالناس، أنا أبي لسانك ياماجد، أبي لي كْلمات منك اللي يقعّدنهم للحق، اللي انت تارا، اللي انت تشوف. قال ماجد: انت تْعَرف ان كل الرمال أعمل مني عطا، وانا والله ابخلهم، يا عَطَوا لقحةٍ ما اعطي الا حاشي –يقوله ماجد– وادْخل على الله عن غَرْفك لدم جوفي، لك ناقه ولك جمل، وادخل على الله عني، والحَقّ والله كود بِيْسط لك، متى ما شرِّقَوا طالبْهم وتَفْلِجْهم. قال: للَّه، انا ابيك تكتب معي لي كلمات، خمس كْلماتٍ تكتبهن لي أبتعقّل الله بنياقي. قال: ما انت عاذرن؟ قال: لا. قال:: زاد صل الجمعة معهم واطلع الخطيب مِعِك جايّ –هم الجمعه هكاليوم. يوم جاب الخطيب وارْقِم

هكالكلمات له، اكتبهن له وانهج يمّهم، هم بالجوبه على مْغيرا، مغيرا عد بدو:

راكبٍ من فـــوق ســـرّاقـــة الوطا ... عـــمْليّـــةٍ مـــا يلْتـــهـــد ركّـــابه
علّق على كـــورَه قـــرامـــيش الخـــلا ... وخلّه نـهـــار الصِّـــدِر تمشي دابه
ويا اصْبَحْت شد الحبل واقدَه بالعصا ... وســوقك بْعَـقْـبِك وهي تحـقّل مـا به
زبنٍ لـراسِك عن رهـاريه الظـمـــــا ... عـرمـاس من عـوص النضـا عـيـدابه
تلفي لبـــيتٍ منزله راس النبـــا ... بيت ابن دغـــمي يا لِفَت حـــيّى به
بيت النقـا جـزل العطا سـهل النبـا ... والى عنى له عـــانيٍ مـــا كـــابه
انتم مـــهـــاويكم على وضح النقـــا ... وخل الفـغـيـصـيـة لمن يهـقى به[1]
وكـان انت مـضـيـومٍ فـقلّد شـقّـه ... من فـوق حـمـرا تنسـفـه بلبـابه
ويا جـيت وصط النزل طوّل صـيـحـه ... عِقّيلها وجِـهّـيلهـا تَشـقى به
حـتى يجـونك فـزعـةٍ فـوق ضـمـر ... مـــثل القطيع الوارد العـــزّابه
انـخ الخـــــزاعي ثم طـوّل خـطّه ... وقـنّوف كم من عـــــزبةٍ الوى بـه
مظنون عـــيني يالخـــزاعي طِعْني ... أدّه بليّـــا طلْبـــةٍ وطْلابه[2]
والعـسكري زبن الكمين مـحـمـد ... لـه ربعـــــة روس الندف تبنى بـه
له قَـرْوةٍ مـعـبـيّـةٍ مـمليّـه ... حـوشـه وحـوش عـيـالهم يرمى به
انـخ الدويلـه يدركـــونه بالعـــوج ... ويا حنّثـوا الحق مـــا يمشى به[3]
ان قـام مـثله من يقـوم بحـقـه ... والوانيـة عند العـرب مـشـعـابه
ادّوا عـلـيـنـا الـوضـح زيـنـات الـلـبن ... أدّه بليّـــا بلشـــةٍ ونْشـــابه
طلي الصـــدا بالوجـــه مـــا هو لازم ... اللازم ان النـايبـــة يقـــضى به
ان جـــيت والله للجـــبل لازعج لك ... طلحـيّـةٍ مـا يفـهـمـه كـتّـابه

وهو يستقعد هكالشايب فنجال القهوه بيده، قال: ردّها ردها. وهو يرد القصيده. قام لك الشايب وهو يجدع الفنجال قال: ثُوروا يالدغمي أدّوا اباعر هالشمري، يالله بِلُّه كِلَّه اجْمَعْوَه وادّوَه لُه. وهو يجيك ابن مزيريب يسوق اباعره، يْغَنّي عليَه بالقيض الحمر.

وفي جانب آخر من جوانب التداخل بين القضاء العرفي وبين بقية مكونات الثقافة البدوية، نجد في الموروث القبلي مجموعة من نصوص الحكايات والقصص والأشعار والأمثال والقواعد المرعية التي يتم تداولها كجزء من الموروث الأدبي وتشكل في مجموعها سوابق قضائية أو ما يمكن تسميته بالموروث القضائي القبلي. وبحكم أهمية هذا الموروث القضائي وقيمته المعرفية والفنية يتم توارثه شفاهيا مثله مثل الأنساب والأشعار وبقية المعارف والآداب القبلية التي تتداخل معها وتشكل معها أحد وسائل وآليات الاستمرارية الثقافية. يتحدث الجزء السردي من هذا الموروث عن الأحداث والنزاعات وما يتخللها من مرافعات وأحكام وإجراءات قضائية، بينما تعبر الأشعار عن الدوافع والنزعات الأخلاقية والعاطفية التي تقف وراء هذه القضايا وتحركها وتحث الفرقاء وتناشدهم ليبذل كل منهم ما في وسعه لحماية حقه

---

(١) **الفغيصية**: السلب والنهب بطرق ملتوية تخالف السلوم القبلية.

(٢) الخزاعي وقنوف من الدغمان.

(٣) الدويله هم الدغمان. **العوج**: القوه التي لا تخضع للحق.

من الضياع. والدعاوى القضائية المعقدة، مثل الحروب القبلية، قد تستمر لعدة سنين، وربما عقود، تتخللها عمليات كر وفر من الحروب الكلامية والسجالات الشعرية وتتعنقد هذه السجالات الكلامية والشعرية وتنسج على شكل رواية لا تختلف كثيرا عن سوالف الغزو، كما في الرواية التالية التي ننقلها برواية منديل الفهيد وخالد بن محمد القحطاني (فهيد ١٩٩٠: ١١٨-٢١؛ قحطاني ١٩٩٤: ١٤-٩):

ابن فتنان من شعراء قحطان وشجعانهم أصابته حاجة فقصد آل حميد مشايخ برقا يسترفدهم فأولم له ابن حميد ودعا كبار قومه وعرض عليهم حال ابن فتنان، ثم رمى عند البيت أربعين عقالا من عقل الإبل، والعادة أن من أخذ عقالا أحضر مكانه ناقة ومن أخذ أكثر أحضر بمقدار ما أخذ. فأحضروا له أربعين ناقة لقاح. فبنى بيته وبقي عندهم سنين على عشرة طيبة، ثم عاد إلى جماعته وهو يحمل لهم منة عظيمة.

وكان عند عباس بن علوش بن حميد فرس أصيل نادرة مشهورة أصلها من هدباء من خيل ابن مضيان شيخ الظواهر من حرب، وكان ابن حميد شريكا لأحد الحربيين في هذه الفرس، فاشتراها ابن حميد بعد ما قدروا قيمتها بستين ناقة فدفع للحربي ثلاثين ناقة نصيبه منها. وقد شح عباس بن علوش بن حميد بالفرس بيعا أو عطاء ومن شعره فيها قصيدة يقول مطلعها:

ياسابقي حالي سِوِيٍّ لحالك ... حبك سطى بالقلب ما فيه تشكيك

وله فيها أيضا قصيدة يقول مطلعها:

لى قوّدوهن ستة أيام عدّهن ... يشوفون نشرٍ مع جذيبة مال

صار لهدبا وبنتها من بعدها صيت عظيم. وقد وقعت البنت وراكباً من الحمدة في أحد المعارك بين عتيبة وقحطان وكسبها ابن كميهان من آل سبعان من الخنافر من قحطان. فبعث آل حميد إلى مجدل بن فتنان ولد صاحبهم القديم يطلبون منه السعي في أداء الفرس من الخنافر، علما بأن ابن فتنان ليس له مثار بالفرس لأنها أُخذت بعد خمس سنين من رحيله عنهم وهو لم يعد جارا لهم حينما أُخذت. وكان ابن فتنان مريضا فاعتذر بالمرض وقال: إن سلمت جاءتكم فرسكم وإن مت فليست الفرس أغلى مني. وقد مات مجدل.

حاول مجدل بن فتنان جاهدا أن يسترجع الفرس من الخنافر ويعيدها لآل حميد إلا أنهم رفضوا إرجاعها متعللين أنها "غادر" أو "ثالم"، أي أخذوها وهي مغيرة عليهم في مُرحهم، والغادر من فرس أو ذلول لا ترد حسب السلوم والأعراف القبلية وتسقط جميع الحقوق المتعلقة بها إذا أغارت عليهم أو أنذرت بهم، كذلك الذلول التي تغير أو تنذر بغارة لا ترد. ثم إن ابن فتنان لم يكن جارا للحمدة "الطنب جنب الطنب" أثناء تلك الحادثة حتى يلزم بني عمه بإرجاع الفرس.

وقبل أن يموت مجدل أوصى أخيه منيف بأن يبذل جهده في إرجاع الفرس. فلما مات مجدل استمر الحمدة في إلحاحهم بالقصائد والمراسلات على أخيه منيف وجماعته الخنافر يطالبونهم برد الفرس. وقد ترافع منيف عند عوارف آل حميد، وهم شويمي المقاطي وخباب المقاطي من القمزه وخالد بن تركي بن حميد، وعوارف قحطان مطالبا كميهان والخنافر برد الفرس، وكان حكم العوارف كلهم، سواء من عتيبة أو قحطان، أن مثل هذه الفرس لا ترد وأنه ليس لمنيف فيها "مثار" وغير ملزم بردها حسب السلوم. إلا أن الشيخ محمد بن هندي بن حميد لم يقنع بذلك واستدعى الشاعر تني ابو عبية وطلب منه أن يبعث قصيدة مثيرة لمنيف وجماعته آل روق يحثهم على إرجاع الفرس. وقال تني:

ياراكب ملحا من الدارباتِ ... مامونةٍ من نابيات الحصيره

تلقى منيفٍ حـــامي الجـــاذيات ريف لربعـــه بالليـــال العـــسيـــره
يامـــا ذبح من فـــاطرٍ غـــيـــر شـــاة لى ركّـــبت غـــبـــر الليـــال الضـــريره
رمّـــــايهم لى قل هوش الرمـــــاة خـيّـال لى جـا بالدبايل سـعـيـره
ياســابقي باللون صـفـرا صـهـات هذيبـهـا يسـبق سناة المغـيـره
الســابق اللي مــثل وصف المهـات ومن الفـهـد فـيـهـا حـلايا وسـيـره
الذيل مـــــركـــــوزٍ بوسط القطاة والســاق ناعـــورٍ على جـــال بيـــره
قـــصـــيـــرةٍ لاولاد روق العـــصـــاة قـــصـــيـــرةٍ يا ويّهـا من قـــصـــيـــره
ثوّرت فـيـهـا مـجـدلٍ لين مـات وصـــارت لكم ياباقي الحي عـيـره
خـــشـــيـــرته بالزاد والحي فـات وامـه عـدايلهـا عـدايل منيـره[1]
مـا دام صـبـحـا من قـبـال الحصـاة لهـا عليكم شـامـةٍ مـسـتـديره
قل الفـــرس بسلومكم كـــيف تاتي والخنفـري فـيـهـا هروجٍه كـثـيـره

ولما وصلت القصيدة إلى آل روق ثاروا على بني عمهم الخنافر يطالبونهم بأداء الفرس وكادت أن تحدث فتنة وتثور الحرب بين الفريقين وتواعدوا فعلا للمعركة وصاروا يسنون سيوفهم ويعسفون خيولهم. إلا أن الشيخ محمد بن هادي بن قرملة تدارك الأمر بتدبير حازم أنهى المشكلة وحقن الدماء. فقد استدعى الشيخ ابن هادي شخصين على فرسين وقال لأحدهما اركب أنت مسرعا و"اقرع"، أي امنع، الخنافر باسمي حتى أنهي قضيتهم مع آل روق وأنت يالآخر اركب باسمي و"اقرع" آل روق حتى أنهي قضيتهم مع الخنافر. ثم استدعى الشيخ ابن هادي كبار آل روق وهم ابن مريحة ومحمد بن حشيفان وقال لهم أنتم كفلاء على آل روق حتى أنهي دعواهم مع الخنافر واستدعى آل مزحم من كبار الخنافر وقال لهم أنتم كفلاء على الخنافر حتى أنهي دعواهم مع آل روق. وطلب ابن هادي من الفارس محمد بن حشيفان أن يحضر له ناقتين "مغاتير" من أنفس الأبل. وحضر الطرفان المتنازعان عند الشيخ ابن هادي الذي وجه كلامه لابن كميهان الذي كسب الفرس وطلب منه أن يسلمه حبال الفرس. وتردد ابن كميهان ولكن الشيخ ألح عليه وأخذ منه الفرس على غير رضى منه ثم قال له دونك هاتين الناقتين عوضا عنها وسوف تكسب في غاراتنا القادمة فرسا مثلها أو أطيب منها. فأخذ ابن كميهان يزهم جماعته ويحرضهم ليثيرهم ضد ذلك الحكم الذي رآه مجحفا بأبيات ارتجالية منها قوله:

ياولاد ســبـعـانٍ جـمـال الـهـداد عـــزّي لمن خلّى مـــواقف جـــدوده
والله مـــا يرضى بحكم ابن هادي ياكـــون من هو باراتٍ عـــضـــوده

إلا أن جماعته تقديرا منهم لشيخهم لم يستجيبوا لتحريضه. وقد أجابه الشيخ ابن هادي بقصيدة يطيب بها خاطره وخواطر جماعته لكنه يقول في عجز البيت الثالث إن ابن كميهان بتمنعه من تسليم الفرس يريد أن يثير فتنة وهو بذلك كمن يشلع، أي يقتلع، عمود بيته، وهذا رمز لانشقاق القبيلة وضعفها لأنها هي البيت الذي يحتمي فيه الجميع ويستظلون. وفي صدر البيت الرابع يحذره من إثارة الفتنة ويشبهه بمن يضع يده على الزناد مستعدا لإطلاق النار:

نـعـمٍ بكم يـوم الـلـقـــــا والطرادِ افـــعـــالكم يوم الطراد مْـعَـدوده
ليـا اعـتـليـتـوا فـوق قبٍّ جـيـادَ ســتـــر المزيّن لى رثع به قـــعـــوده
ان كـان في مـوضـوعنا ذا فـغـادي غلطان ياشـــالـع ذراه بـعـــمـــوده
لا تقـــرب البـــارود خـــشـم الزناد تصـيـر مـثل اللي يلطّم خـدوده
هذا طريح وذا بعـــمـــره يفـــادي وهذاك يزعج دمّـــهـــا من لـهـــوده

وأعاد منيف بن فتنان الفرس إلى أصحابها وبعث معها قصيدة يبين فيها ما بذله من جهد

(١) منيره زوجة بجاد ابن سلطان ابن حميد. الحصاة حصاة قحطان وصبحا موقع بالقويعية.

في سبيل إرجاعها رغم حكم القضاة الذين حكموا بعدم حقه في ذلك. يقول منيف:

يالله ياللي سـايله مـا بعـد خـاب ... انك تقـبّل سـاير العـذر مني
باه الطبـيب وسـايفت منه الاطبـاب ... لى واهني اللي بصـدره يكني
هجس اني اركب لي على جيش واركاب ... وعند الشـيـوخ ركـابنا نوّخنّ
ردوا سـلامي لابن سلطان وعـقـاب ... ومـحـمـدٍ حـامى الحـدور المدنّ
هل سـربةٍ مـا ذيّرت نزل الاصـحـاب ... والا على نزلٍ العـدا يوجـفنّ
تلقى لهم في قِـعّـد الخيل مـضـراب ... لى من شـقـصـات الرمك رفّـعن
تلقى لهم في وقت طيـحـات الاشـراب ... وادباشـهم يم الحـوَم شـرّبن
وان اجنبوا يم الشـهـيـلا ومـشـعـاب ... وادباش مع شـقف المواطي رعني[1]
السـابق اللي قطّعت ذرو الاطناب ... تاعـوا لهـا يوم الركـاب اقـبلن
ألهـاني ادوّر عليـهـا بالاسـبـاب ... وعـيّت سـوالف مـثلهـا يوكلن
مـا طعت فـيـهـا قـول خـالد وخـبـاب ... وسـوالفٍ لشـويميٍّ قـد مـضن[2]
الحق مـا يدّيه ضـحك بالانيـاب ... والرقص معٍ رقّـاصـةٍ يرقـصن
ياكون من عـينه كـمـا صلوٍ مـشـهـاب ... أو لولبٍ يوم الحـجـج يفـتلن
أخـاف من هرجـة عـدوٍّ وشـذّاب ... في مـجـلسٍ ياتي برمح المطني

كما بعث الشيخ ابن هادي بقصيدة يرد فيها على قصيدة تني أبو عبية التي كان قد قالها على لسان الشيخ محمد بن هندي بن حميد. يقول ابن هادي:

ياراكب من فـوق عـشـر نضـواتِ ... سـبق القطا اللي نابغ من مطيـره
مـرباعـهـا يم الحـوَم وسـفـواتِ ... في مـاقعٍ مـا هوب يقـزي بعـيـره
ملفـاك تنّي حـامي الجـاذياتِ ... قل الفرس فـيـهـا دعـاوٍ كـثـيـره
أدّيتـهـا بحـبـالي الوارداتي ... يوم ارتخت عنها الحبال القصيره

الكفالة والدخالة

في ظل غياب مؤسسات الدولة والسلطة المدنية في المجتمع القبلي تقع على الوجهاء من أصحاب النفوذ مهمة الحفاظ على الأمن وضبط النظام والحد من العنف وذلك من خلال مؤسسات **الدخاله والكفاله** التي تقوم مقام الأجهزة التنفيذية والأمنية في الدول الحديثة. **الدخاله** إجراء وقائي يتم اللجوء إليه لحجز الطارد عن المطرود أو الظالم عن المظلوم من أجل درء الفتنة وصد الباغي وتمكين العدالة من أن تأخذ مجراها. ويحدد أبو حسان هدف **الدخاله** بأنه "إرغام الخصم القوي على اتباع الأعراف والتقاليد كما يفعل الخصم الضعيف سواء بسواء أي أنها ترمي إلى إحقاق العدالة بين أفراد البادية وعشائرها بغض النظر عن مدى قوة كل طرف" (حسان ١٩٨٧: ٢٢٩). وبعد الاتفاق على حل الخلاف قضائيا بين الأطراف المتنازعة يأتي دور **الكفاله** التي يتم اللجوء إليها من أجل ضمان تنفيذ شروط الصلح أو أحكام القضاء وللحيلولة دون اختراقها أو الإحجام عن تطبيقها. وتقع مهمة **الدخاله والكفاله** على وجهاء القوم من الشيوخ العقلاء والحكماء الذين يتصفون بصفاة الحلم والأناة وبعد

(١) **شقف المواطي**: الظباء، أي أنها ترعى في القفر وتتوغل في جوف الصحراء.
(٢) هؤلاء هم العوارف الذين نظروا في القضية وحكموا بأن مجدل غير ملزم برد الفرس.

النظر وكلمتهم مسموعة وآراؤهم نافذة بحكم ما يتمتعون به من نفوذ مادي ومعنوي مما يعطيهم سلطة أخلاقية على أفراد قبائلهم.

وجود القوانين والأعراف والسلوم لا يعني أن الجميع سوف يراعيها ويتقيد بها، فهناك الطاغية وهناك الظالم وهناك الجشع وهناك المعتد بنفسه وهناك الصعلوك الذي لم يؤسس لنفسه رصيدا من الشرف ومن السمعة الطيبة التي يحرص على الحفاظ عليها وتنميتها والتي تردعه وتثنيه عن الأفعال المشينة. فقد اشتهر معظم شيوخ القبائل، كما مر بنا، أنهم يستنكفون من نهب من ينقل الماء ويسمونه **الروّاي** أو الغذاء ويسمونه **النقَذ** أو المسافر ويسمونه **المدّاد**. وقد ذكر لي خليف ابن دمنان ابن مزيريب أن شيخ العمارات فهد ابن هذال أوصى ابن جبيل من الفدعان على إبنه متعب أن لا يغير على القبائل في منازلها وأن لا يغير إلا على الإبل في المفالي بعيدا عن البيوت، قال له: **ترى الورع هذا أمانة برقبتك لا يجاهد الناس عند محارمه الا ان جا اباعر بالخلا والا لا يجاهدهم عند محارمهم**.

ومثلما يوجد في القبيلة عقلاء وحكماء فإنها لا تخلو من **الجِهّيل**، أي الجهال، بمعنى الطائشين المتحفزين ممن أيديهم دوما على مقابض سيوفهم مستعدين لحسم أي خلاف أو سوء فهم بحد السيف. وهناك أناس بطبيعتهم مجبولون على الشر لا ينصاعون لطريق الحق ولا لصوت العقل ولا يقدرون الآخرين ويراعون مشاعرهم، والواحد من هؤلاء يسمونه **عوج** أو **أجنف** أو **عَوِير** أو **مقرود** أو **عَيّ** أو **عنيد** أو **اقشر** أو **قليل سنع** أو **قليل دبره**. وقد شخّص لي الراوية جهويل المري من قبيلة المرة اختلاف طبائع البشر على النحو التالي:

> الناس ما هم واحد. فيهم اللي نفسه رديّه وخاطره ضيق، وفيهم اللي وسيع مهايل وعلومه ذربه ونفسه سمحه.والواحد الى ورد على الرجاجيل وهم متشاجرين ومتزاعلين، قال: اذكروا الله يامسلمين، قولوا لا اله الا الله. قاموا قالوا: لاااا يلاه الا الله. قال: خوفوا الله واليوم الاخر ولا يمتكن تطب الجنه الا انك تود لاخوك المسلم مثل ما تود لنفسك. الرجّال الى جيته باللين والهدو، قلت: انت يافلان تكفى يالمطوع ياللحية الغانمه. المثل يقول العون مع الهون، والهرج الليّن يْغَدي بالحق البيّن. والاخر يقول الصبر زين وفيه مرضاة ثنتين// يرضى الرفيق وتاخذ الحق وافي. لكن بعض الناس يقوم وجهه يتقطع شرار، زعلان توكلنا على الله، يذبح اخوه عند قطرة الما، تكِهْلُه حتى قولة سلام عليكم. يخطي وهو صايدٍ فيها فرصه، صايد بالخطا هذا فرصه. ان وِرِد عليك على القليب حدّيت نياقك عن نياقه وهجّيت عنه ما تبي تبالش انت واياه وخليته هو يرد ويشرب من القليب ويصدّر. وانت ما قومك بالطيب، ما صيدك طيب، بس تبي تِفْتَك من غشاوه وشره، وهو صايد فيها فرصه. يردّ على الناس ويهاوش على شان ان الناس يقولون هذا حرامي، اتركوه هذا مقرود، اقشر، ويجنّبونه. هو ما عليه من قولة مقرود واقشر لانّه محصّلٍ من وراها مصلحه. ان جا وارد الناس جنّبوا عنه وخلّوا له القليب، وان جا محل الناس ابعدوا عنه قالوا خلوه، اتركوه. بعض الناس يصيد فيها فرصه الحروميه هذي. ان مس رجلك تحت رجله وطا على رجلك ورصّ عليها يبي رجلك تعوّرك على شانك تنحاش منّه. واكثر الناس الله يعينه على نفسه ويتعوّذ من الشيطان

ويتركه، يبعد عن الداب وشجرتَه. هو يْتَهْول عليك، يبلّق عليك عيونه، ويقرّص عليك سنونه، ويقرّط عليك شنونه. لكن لى الله بلاك به لا تْقَصّر فيه، ترى ما هوب مقصّرٍ فيك. والمثل يقول: العايلين دواهم العِيّال. لَنّه هو كرّوان، يقاقي ولا يلاقي، لى شاف الدعوى صامله انحاش. بعض الناس لو هو ابن عمك ما منه خير لكن تخاف من الرجال يعيرونك به، بلوى. والا ما هوب قليل غشا. ان اجتمع هو واياك عند الاجانب فِتن بينك وبين الاجناب والى ثارت الهدّه شرد ولا عاد شفته وجت براسك انت. وان وردت على القليب لا اسقى معك لانّه ضعيّف، ما به جهد، لا هوب جارٍّ الدلو ولا هوب مالي الحوض وان شلّيت النقله ما شال معك، عزمه ردي، ونفسه اكبر من جبل احد، نفسه ثقيله ومشروهه ثقيل، يشرَه، وهو ما ينفع بشَيّ. لكن غاصبك عليه اما قرب لحْمه والا خطو سْنافيٍ في طْرِفه، اما ابن عمه والا نسيبه والا ابوه والا اخوه، اللي تداري عليه من المناقيد. تداري هذا على شان هذاك، أو ذالٍّ من الرجال يقوّمونك يقولون ياللي خليت ابن عمك والا خليت رفيقك، لو بك خير ما خليته. انت تسمع؟ هذا مثل الى صرت قانص وشفت لك وضيحي والا ظبي ومدّيت يدك على محزمك وشلّيت الفشقه وانت عينك للصيد، تلقف الصيد لان الصيد الى شافك قبل تشوفه هج عنك. وخذيت الفشقه ومشّشْتَه بالرمل على شان ما يصير فيها حَلى، وصَخ، وادعسته ببطن البارود ورميت، وانت ذاك الحين موكّد الرميه، انت بواردي وذرب وتعرف ترمي، حطيتها في عين الظبي على شان انك تنومس بها عند ربعك، الى جيتهم تقول اشهدوا عليه ضَرْبتي في عينه، وتمكّنت انت منها، قدك تشوف الذباب يوم وقّع على عين الظبي. بس يوم رميتها عليه طَنْقَرَت البارود. فالى طنقرت نطَلت الفشقه تبيها تطلع تحط غيرها يا مير والله طلع الناتوش لكن الفشقه قعدت ببطن البندق، عيّت تظهر، لى والله ما عاد فيها فايده، سدّت الطريق على الفشق اللي فيه خير وهي ما جا منها فرج. سدت الطريق على الفشق اللي فيه خير. انت معك فشق، محزمك مليان لكن هذي سدت الطريق. مثل خطوات الرجال الردي اللي الله يسوقك عليه وتْشلّه معك فى الغماره والا تردفه معك كانك على ذلول، وعقبٍ عيّنت لك سنافيٍ وراه وانت ما عادَ معك مشد، ما معك الا هالمركب اللي قعد به هالردي. ان حوّلته قالوا حوّل ابن عمه واركب الاجنبي، والاجنبي ذاك كحيلان، ان حربته ضرك وان صاحبته سرك، وهذا لا مسره ولا مضره. مير الرجل اللي سنونه بيض وفيها وحده تعوّره، ان شرب الما البارد صْقعْته براسه وان كلى الشي الحار صقعته براسه وصابرٍ على الاذى ما يبي يقولون جانا الاثرم، لانّه الى شالها سلم من الاذيّه، مير العرب الى سيّر عليهم ما عاد همب قايلين جانا رجل له مْلَحّىً زين والا مشورب والا راعي قرون طوال، بيقولون جانا رجل اثرم.

الحياة البدوية بطبيعتها وبحكم تنظيمها القبلي الهش محفوفة بالمخاطر ومشحونة بالتوتر ونقاط التماس التي يمكن أن تقود إلى الاحتكاك وانفجار العنف بين أبناء العم وأفراد العشيرة الأقربين، مثلما يحدث مثلا عند موارد المياه الضحلة أو المراعي الشحيحة. وإذا لم يوجد بين الأطراف المتنازعة شخص عاقل أو طرف محايد يحجز بينهم "يفرع" ويفض النزاع فإن حدة الشجار بينهم قد تصل إلى درجة أن أحدهم يصيب الآخر إصابة بالغة أو يزهق روحه. وربما حدث العنف بسبب شخص غريب جاء يبحث عن غريم له يطلبه بثأر أو بسبب حنشولي تسلل ليلا ليسرق من أحد المرح فتنبه له صاحب الإبل. وحالما يعرف أهل القتيل أو المصاب بالحادث، إن لم يكونوا موجودين أصلا أثناء الشجار، أو من تعرضوا للسرقة أو وقع عليهم

الضرر، أيا كان ذلك الضرر، يهبون لمطاردة الجاني للاقتصاص منه. ولاتقاء الخطر المحدق يفر الجاني ويلتجئ إلى أحد البيوت القريبة ويدخل على صاحبه طلبا للحماية منهم والنجاة. عدم القيام بواجب إدخال المطرود يعد عارا ما بعده عار ودليل على الضعف والهوان. وحتى لو لم يكن صاحب البيت وأقاربه الرجال من الأبناء والإخوة موجودين فإن النساء والأطفال يقومون بهذا الواجب. وحالما تطأ قدم الشخص المطرود حرمة البيت أصبح بمنجاة من مطارديه. وحرمة البيت تبدأ من مسافة يُقدر بعدها عنه بما يمكن أن تصل إليه حذفة العصا أو الحصا، بمعنى أن يقف شخص بالغ معافى وسط البيت ويحذف عصاه بأقصى قوة ممكنة والنقطة التي يسقط عندها العصا هي حدود حرمة البيت. والقصة التالية التي سجلتها من حامد ابن علي البجادي السعدي من شمر تبين كيف تتم **الدخاله**:

ابن شراره جاب راس الدريعي، هاللي يقولون انت جايبٍ راس الدريعي! ابن شراره ثابتي. الدريعي ابن شعلان رِبَط اخو ابن شراره عندُه، يوم الرباط، البدو يقولون يربطون قبل لما يدفع مدّاوه والا يِذْبَح. الدريعي رِبَط اخو قهموز ابن شراره. الثمرة سام روحُه وعيّى وذْبِحه ابن شعلان، الدريعي، ذبح هذاك. وخوذي وقت ياهالسالفه وتقعد تصيح امه. يقول خَرْبَن عيونه من الصياح والبكا. يقول وهي تِنْكَبّ بله ليلة يقول ويْحَلِب هكالعْشَرا وْلِدَه هو قهموز، راعي نْجيمه، معه قديمي اسمه نْجيمه. ويِقعْدَه، تعبانه وتْخَبَر: يمّه يمّه. يقول يوم انتبهت قال: اقعدي دونك. قالت: وشّو؟ قال: لبن الفلانة. حَلَبْت لبن الفلانة، ناقةٍ لُه. قالت: واضربه، وش جايبٍ لي راس الدريعي، انا احسبك تِقعْدَن جايبٍ لي راس الدريعي. قبل البدو تْخَبَر حْدود. وازعل واركب هكالمطية وياسْمَه المضباع، وسم الصلبه، يحط علْيَه الكَوْيه، ويسوّي المضباع، ويسوّي لُه فَرْوَة ضْباع، الصلبِه اوّل. شفت الضبعه هذي؟ يْسَوّون جلدَه فروه. ويصير لك صلبيٍّ من قاعَتُه. ويجيك مع هالشمال يسعل عن ابن شعلان، عن الدريعي. ويِطِب على راعي هكالبل، مع وسط الرولة جايِّك ينشدّ، صلبي ما احد يسعله. ويجي راعي هكالبل يا مير راعْيَه عبد، هكالعبد الاسود كِبْر الجمل مع هكالمغاتير. يقول يا والله يوم شكّك ان هذولن نياق الدريعي. يقول وسلم عليه وسولف هو وايّاوه، اي بالله. يقول يوم بحَّر لُه والى مير العبد بس يْراعي لرِجْلُه، قاعدٍ عندُه يا مير العبد يسوق عينُه برجليه، رجلين قهموز. قال: ياولد انا ابسعلك وابيك ما تخفّي علي، هو انت ابن هدالق، انت ابن شراره؟ قال: لا بالله ما هو انا. قال: يارجل انت وْكاد انك منهم –عْرِفُه من الاثر، من الدم– لكن ابي تعلّمَن، ابيك تعاهدن – يوم هكالوقت العهد لو تعاهد على راسك– وابيك تعلّمن بقضيتك. وتعاهدوا. هو يدري هذاك العبد. قال العبد: اقول يوم صرت انت ابن شرار تران انا ابن عمٍّ لك، انا شمري. قال: والله انا هاللون وهاللون واليوم مقصدي الدريعي. قال: الدريعي ما تِحُول عليه الا الصبح، الضحى، ليا مَدّن، يا اصبحن النياق الصبح، يمشي معهن ليا ما يجي الما، والى ورد اولهن على الما احترَف ونكَس للبيت. يقول يْداحِم له حيلٍ معهن ويِحكّ لهن ويداحمهن، عزيزات عندُه، يداحمهن من غليهن عليه. قال: طيب واللي يزبّنَن من الرولة من هو؟ اللي يا زبنت عليه يزبّنَن، والا انا ما انا ذابحٍ الدريعي بس هاك، ابزبن، من انا ازبن عليه؟ قال: والله ما اخبر اللي يزبّنك الا بيتٍ والله هناك عنهم هو حدري العرب يقولون لهم الهقْشا، متوسّعينٍ عن العرب اباعرهم جِرْب، مجربه، ان توهلّتهم فانت زبنت، وغيرهم والله ما اخبر اللي يزبنك. وروّح هكالليلة على العرب واخْطِر له رويلي وعشُّه. صلبي! ابا الخلا، ما يقولون له الا يابا

الخلا. يوم جا الصبح يقول يا مار بْشَنَق الما شجر طويل، يقول يا معه نجيمه ويقِصّ من هالعيدان ويسوّي للوغدان نْبال، ويلعب مع الوغدان. يقول يا مير يوم دكّن للما النياق. يقول يا مير يمشي مع وسطهن. يقول يا مير يداحمنُّه هكالحيل بهن. يقول وهو يَقطْرُه من قَفُو يقول يوم احْتَرَف يا مار هو بْحَلْقُه وهو لك يعطيه عِمْرُه. عْرِفُه، انت يالدريعي عْرِفُه يوم ادلى عليه. ويعطيه عِمْرُه والى والله لا يمديه لا هوش ولا هزيمه، لا معه سلاح يبي يكافح عن روحه، بيديه، ما معه سلاح. والهَبُه طال عمرك وهو يركض وقِص راسه يقول وِتْنانُه لهن مْطاقَع ويْهَرب، يْعَمَد لك البيت. خلّى رِحُولُه، مطيته، عند العرب. واركبوا باثره. يوم وصل البيت وهو يزبن على المحرم. يا مار به بنتين بالمحرم، بالبيت. هذي وحده قاعده وهذي وحده نْطَحَت الرجال، وش انت يارجال؟ قال: انا زابن. قالت: دخل الدخيل وسلم، زِبَنْت وخاب طالبك، يارْجال الوجه، الوجه، تروكم تخبرون الهقشا، تروكم تخبرونهم وراكم، الوجه. يقول وهذي الثانيه اللي قاعدةٍ عنده بالبيت تصيح، تقول: اذبحوه، اذبحوه، والَقْعَة كبدي، هذا راس الدريعي معه. عرفت راس الدريعي معه ينقله. هذي مزيونه اللي بالبيت هكالشقرا اللي ما عندك ازين منه، وهذيك دْعَسَنٍ سمرا. الثمرة اوقفت الخيل ما دشّوا عليه. يقول وهم ينكسون ما جوه. يوم احْتْرِفَوا ونْكِسَوا يقول يا مير يوم طْلَعت، ثاريهم مِتْقين اباعرهم يدواون به جَرَب ولا دَرْيوا. يقول يا هم جايِّين. وشو اللي عندكم؟ قالت: والله هاللون وهاللون. يقول مير لذ عليه يقول يا والله بفراش الحريم ومعه له راس رجّال، يا هذا راس الدريعي معه. يقول امير اسكت، جوا اخوتُه، هم سبعه اخوه. يقول يوم جا العصر، قال: ياولد رح، رح، رح يم، تشوف الرجاجيل اللي متكوّمينٍ بايمن العرب رح يمّهم ترى عندهم لهم جزور وهات حقِّنا، هات حقِّنا، اركب الجمل هذا. قال: وين اروح؟ قال: تجيب حقِّنا تر حقنا اليد اليمنى. قال: ياولاد الحلال انتم كان تبون تذبحونن اذبحون انتم ولا اعوّد لهذولاك، انتم وش عاد تحمّلونن هالخطوَة لُه؟ بهذا اذبحونن وخلّصوا علي. قال: والله الا تنهج، انت ما انت على مطيه؟ قال: بلى والله مير مطيتي خلّيتَه، خليته معقولةٍ عند معازيبي اللي هناك. قال: رح، رح، رح، خل الجمل ورح زاد هات حقنا على مطيتك، تَرْه اليد اليمنى تلقاه مبرّزِه. وايتك يمشي واطلق مطيته وهو لك ينوّخَه بوزن الرجاجيل اللي يقصبون البعير. قال: والله الهقشا يقولون لكم تزعجون حقُّهم. يقول والى هكاليد اليمني وعلّقَه عليَه هكالواحد وهو يجيك. وهكالليله عندهم وسوّوا عشا على يد البعير. يوم قلّطوا قالوا: ثر، ثر ياضيف الرحمن، ثر على عشاك. قال: والله ما انا ثاير الا كان تبون تعطونن طلبتي اللي انا اطلب عليكم وانا ابثور. تَرُوه سعل قال: انتي وش انتي لهم ياهذي؟ قالت: انا اختهم. وهذي؟ قالت: هذي مرتهم، مرة الكبير منهم. يابن الحلال قم على عشاك تعش واللي انت تبي انشا الله يتِم، ما يكون خاطرك الا طيب. قال: والله ما اقعد عليه الا انك تعاهدن بالله وامان الله انك تعطين اللي انا ابي. قال: يارجل عليك الله وامان الله يان اللي انت تبي انه قدّامك لكن تعش وعيّن خير. قال: بسم الله الرحمن الرحيم، وِتْر وتَعَش. يوم قضى وغسل، قال: تدرون وش انا ابي؟ قال: ابي مرتك تسمّعن حباله هالحين، طلاقَه، الا تْسَمّعَن اياوه هالحين كانك معطينن. قال: ليه؟ قال: والله فلا مقصدي الا ذالٍّ تخرّبكم، ذال يجيك لك ولد ما يصير مثلكم. قال: ابشر، يافلان، لاخوه الصغير، اركب اركب واردفه ودّه هَلَه. والله يقولون بليلته أرْدِفَه ووداه هلَه، ما نامت بالبيت. ويركب مطيته الضحى ويلَوّذ على امه خايطٍ على راس الدريعي له سفره، اللي يقول وش، جايبٍ راس الدريعي؟!

ومدة الدخاله ثلاثة أيام خلالها يجتهد صاحب البيت ويسعى إما إلى تسوية

الأمور بين دخيله وأصحاب الحق بالطرق السلمية أو يساعده على الهرب إلى مأمنه بعيدا عن ديار القبيلة، ولذلك يسمون الثلاثة الأيام هذه **الثلاث المهرّبات المقرّبات** لأنها تعطي القاتل فرصة كافية للهرب من طالبيه والابتعاد عن مكمن الخطر وتقرّبه من مأمنه الذي يجلو إليه، **والثلاث المهربات المقربات** عادة ورثوها من أيام الجاهلية (عبيدة ١٩٠٥/١: ٦٦).

ولا تقتصر الدخالة على الأحياء، بل قد يلجأ الخائف إلى قبر زعيم من الزعماء، وقصة لجوء بعض الغزاة لما أحسوا بالخطر إلى قبر الشيخ الصييفي معروفة. يقول حمد ابن شبيب السبيعي:

> به مديدٍ جايبينٍ سقمةٍ لاهلهم وعشّوا عند قبر فهيد الصييفي. يوم اصبحوا ومدّوا عارَضْهم سبعان واخذوهم. قالوا: ياقوم كان انتم سبيع ترانا في وجه الصييفي. قالوا: الصييفي ميت له عشرين سنه. قالوا: حنا ضيفانٍ له البارح، عانوا مْراحنا عند قبره، متحلّقينٍ على قبره. وكلٍ خابرٍ سلم الصييفي انه ما ياخذ النقَذ، ما ياخذ الرواي ولا ياخذ المديد اللي جايبٍ سقمةٍ لاهله. روّحوا لهم خيلٍ تقِصّ الجِرّه وتْعَاين لين شافوا مْراحَهم عند قبر الصييفي. قالوا: ياسبيع خلّوهم، هذولا ضيفان فهيد الصييفي. وقيل ان به مطران ركبهم قليّل ولايعهم ركبٍ من سبيع أكثر منهم. يوم ضيّقوا بهم وهم خابرينٍ قبر الصيفي حَرْذَنوا الجيش عندُه، برّكوا ركايبهم عند قبر الصييفي، دخَلَوا عليه، وافتكّوا جيشهم، جنّبوهم سبيع يوم دْخَلَوا على قبر الصييفي. القبر اللي هم زْبَنَوا أحدٍ قال انه عساف ابو اثنين واحدٍ قال انه فهيد الصييفي.

وهناك قصص أخرى مماثلة. الأهم من ذلك أن هذه العادة قديمة منذ أيام الجاهلية كما يرد في أشعار النابغة عن أحد القبور في جلّق وفي أشعار جرير عن قبر بالقرب من مرّان. واشتهر قبر عامر بن الطفيل بأنه ملجأ يستجير به الخائف، وكذلك ما يقال عن قبر تميم بن مر، جد تميم على ما يقال. وهناك عوف بن محلم بن ذهل الشيباني الذي دُفن، كما تقول الحكاية، بوادي سمي وادي عوف باسمه ومن دخل هذا الوادي الذي فيه قبره فهو آمن. وقد استجار به مروان القرظ فأجاره من عمرو بن هند. ويقول جواد علي أن قبور السادات والأشراف في الجاهلية "يذبح عندها ويحلف بها ويلجأ إليها طلبا للأمان" (علي ١٩٩٣/٤: ٣٦٢-٣، /٥: ١٧٦).

وتفتخر بعض القبائل مثل قبيلة عتيبة (عبيد ٢٧١) وقبيلة سبيع أن المرأة عندهم "**تدخل وتقصّر**". يقول حمد ابن شبيب السبعي:

> لى صار معنا اجنبيه، لو هي بالمثل قحطانيه، وجايبةٍ له من السبيعي ولد توّه يرضع وشافت ابل واخذينه سبيع من قحطان علّقت ورعها في الميزب على متنها وتقول هذي ابل فلان ابن فلان خوال هالورع اللي على متني. ويفك البل الورع، يفك بل خواله.

سبقت الإشارة إلى أن العربي في المعركة يحرص على منع عدوه طمعا في سلبه سلاحه وراحلته أو أسره طمعا في الفداء. ولو تمكن الأسير من الاحتيال والدخول على شخص آخر فإن ذلك الشخص ملزم بالسعي لفك إساره حتى لو اضطر لدفع الفدية لآسره. فمن القصص التي تروى عن عرب الجاهلية أن بسطام بن قيس غزا

بني مالك فوقع أسيرا في أيديهم "فبعث إليه عامر بن الطفيل إن استطعت أن تلجأ إلى قبتي فافعل فإني سأمنعك وإن لم تستطع فاقذف بنفسك إلى الركيّ التي خلف بيوتنا" (عبيدة ١/١٩٠٥ :٧٥-٦). وبذل عامر محاولة أخرى لإنقاذ بسطام حيث أرسل أمة له "بضبة مكون قد حشي بطنها دقيقا ثم مُلّ في النار ثم بَعث به سرا إلى بسطام ليأكله ويدعي جواره" (عبيدة ١/١٩٠٥ :٣٦٦). هذا يذكرني بحكاية رواها لي دبيس ابن مهلهل ابن علوي من عبدة من شمر عن أسرهم لابن ملحاق وكيف تم تخليصه من الأسر، تقول الحكاية:

هكالحين يوم هم ياخذون الشاة على الاجناب اليحي ما لهم الا شاه وحده ياخذه ابن شريم الى ساقوَه لهم الاجناب ووحدة ياخذه ابن علي. بعدين جا عقيد من الروله يقال له ابن ملحاق، عقيد اوذى شمر وناذرٍ عليه ابن شريم. قْضبُه خلف ابن شريم ورْبِطُه حتى انه جاوه اخوه وسامُه من عشرين ناقه الى ستين ناقه وعيّى بِطلْقُه. بعدين اخوه سعل اخوه المربوط من هم هذولا ومن هم هذولاك من انا ادخلك عليه؟ قال: ادخلن على النزل هذاك، اللي هم آل جري، هذولا هم والدغيرات صيحتهم وحده، اسمعهم وانا بالمجلس حميّاهم واحده، يقولون انهم هذولا من دون هذولاك عيال مره، امُّهم وحده. راح اخوه وسرق من البيوت دْرَع غزل هالخيوط هذي وعقد وحده بوحده وعُقَدَه بيد اخوه المربوط وجرَّه لبيت ابن وابل وعْقدَه بواسط بيت ابن وابل. الوابل من آل جري وصيحتهم وحده هم وعيال علي، الدغيرات. جَوا ابن شريم قالوا: يابن شريم اطلق الربيط، دَخَل علينا. قال: ملعون ابوكم ما اناب مطلْقُه، هذا اوذانا، انا لو ابَطلْقُه كان مطلْقُه بستين ناقه. قالوا: تطلْقُه. والله ما اطلْقُه. الا تطلْقُه. ويمشون الكرام على الكرام وتصير ذَبحه. مناخ دوَيّر، دوَيّر شعَيب حَدْري ياطب شرق حايل. ويذْبَح خلف ابن شريم هكاليوم وتهِجّ البل ويحطّونُه على هكالناقه على بيت ابن شريم ويلحقُه المحوّل من آل جري ويحوّل به، هم والدغيرات، ويطلْقون ابن ملحاق الربيط. بعدين توادَوا، جا الصيف وتوادَوا ويطلع للدغيرات شاة لابن سعيّد باسباب المناخ هذاك. ويصير لعيال يْحَي شاتين ويطلع لابن جَدِي شاة مْلاقْيةٍ شاة ابن علي ويصير لهم اربع شياه عبده: وحدةٍ لابن سعيّد ووحدة لابن شريم ووحدة لابن جدي ووحدة لابن علي، هذي ياخذونَه من الاجناب قِصْرِه. ويطلع هكاليوم ابن رمال بجوار عبده، زعلانٍ على سنجاره، يطلع له شاه.

صالح الزعيلي من الشريهه يوم رْبِط صقر الغيثي، رْبِطُوه الهلابا باباعرٍ يسمونَه اذان الضرا، خْذوَه شمر. ويطرش هذاك انت ياصقر وامسكوه واربطوه بَه يبون اغَديَه تجي البل. ويجونك الملاحيق خطار عند ابن بشيّر راعي موقق. وليا هذا صالح الزعيلي وقصد القصيده وفطّنهم لاطلاقة الدغيرات له يوم يربطه ابن شريم. يقول:

بكيت وابكاني مع السوق مطلق ... صغير ما يدرى الحيا والفشايل
من يطلق المحبوس لو طال هجره ... ما يطلقه الا مكرمين الشمايل
نعم بالدغيرات . . . . . يوم ابن ملحاق دخيل ابن وابل

ثاروا الملاحيق بموجب القصيدة هذي وركْبَوا. يقولون ان حَديهم يوم انه اقبل على الجهامه وهم رحِيل ركْب الشداد ولقّى وجهُه قَفُو. قالت مرة اخوه -قال اخوي منخبل- قالت: اخوك خبّلوه شمر. وهم يمشون على الهلابا وتصير الذبحه وهم رحِيل وْبِطلْقون صقر الغيثي بموجب القصيدة قضانٍ لانهم اطلقوا ابن ملحاق يوم هو مربوط لابن شريم.

لا تقف الدخاله فقط عند حد المواقف الحرجة والخطر المحدق وحوادث القتل، بل

إنها تأخذ أشكالا متعددة ومتنوعة. فلربما تعرض شخص ضعيف مغلوب على أمره للظلم والجور أو الإهانة من شخص آخر أقوى منه، أو ربما أن له حقا يخشى ضياعه عند طرف آخر يرفض الإذعان للحق. في مثل هذه الحالات يلجأ المظلوم أو صاحب الحق إلى شخص آخر صاحب سطوة وجاه ويضع ظلامته في وجهه ليُحق له الحق ويزيل عنه سبب الشكوى. ولو أن شخصا ادعى أن له حقا أو دين عند شخص آخر يماطل ويرفض الانصياع لصوت الحق يقوم المدعي بوساقة مواشي المدعى عليه ليرغمه على التقاضي لاستيفاء حقه حسب الأعراف القبلية. وإذا كان الواسق أضعف من الموسوق له ويخشاه فإنه يستجير بزعيم قوي ويدخل عليه الوساقة ويضعها تحت حمايته وفي عهدته حتى يتم حل النزاع وهذا الزعيم يجبر المدعى عليه على المخاصمة أمام أحد القضاة قبل أن يسترد مواشيه الموسوقة. وعادة يعلن الدخيل طلب **الدخاله** قائلا: **داخلٍ على المال والعيال**، وربما قام بعقد ردن صاحب البيت أو طرف شماغه أو هدب عقاله زيادة في التأكيد (Murray 1935: 237). وحسب الأعراف القبلية وسلوم العرب فإن صاحب البيت، حاضرا كان أم غائبا، ملزم بتوفير الحماية للدخيل الذي دخل عليه والتجأ إليه طلبا لحمايته ويطمئنه قائلا: **دخل الدخيل وسلِم، زِبَنْت وخاب طالبك، أو أبشر بالعز وطيب الملفى، أو أبشر حقك لو كان مايل نعدله ولو كان قاصر نطوله، أو أبشر قدامك القمرا ووراك الظلما**.

ولا حدود للمواقف والملابسات التي يمكن أن توظف فيها **الدخاله** كما توضح الحكاية التالية التي تروي كيف أن الجربا أدخل خبراء صفّاقه على قهموز ابن شراره ليضمن أن أذواد شمر تشرب منها وفق خطة مُتّفق عليها تضمن عدم تلوّث الماء وتعكيره:

> قهْموز ابن شراره من آل ثابت دخيل الخبرا، ادخل الخبرا عليه الجربا، شيخ شمر، قبل الجربا يزوح للعراق هناك، يَمّ الجزيره، يوم هو بنجد. الخبرا يقولون اغَدْيَه صفّاقه، هذي هاللي دون حايل. هاللي عاد يقول دخيل الخبرا. شمر نْزَلَوَا الخبرا بالصيف وهم مظْمين، عَطْشا. قالوا: كان هي شَرْع ودشّته هالامّه والله ما تِرْوي نصّ شمر ونْهَلك وما من غير الله والخبرا، وان كان هي صَبّ بحْياض لا بالله تِرْوي شمر. ما لِقَوا اللي يدخْلَه. قالوا لابن حصن: انت ادخْلَه يابن حصن. ابن حصن من الخْرصه، شيخ وفارس. قال: لا والله يدخْلَه اخو ثريّا، قهْموز. قال: انا ما ادخْلَه. قال الجربا: والله ان ما ادخلتَه ياخو ثريا ما احد يدخْلَه. قال قهموز: انا ذالٍّ من ابن حصن –بينهم آه، سُوّ تفاهم– انت يابن حصن وش تقول؟ أدخله؟ قال: اي بالله ادخله. قال: تَرُوكم شهود ياشمر. ادخَلَه عليه الجربا وهو يعني ناويٍ له، يبي يجْدعُه بْلُه شر. وابن شراره قهموز يقولون اقشر، ما يمَضّي. قال له الجربا: هالخبرا تراه بوجهك ياقهموز عن شمر كلّه، لا تدشّه البل، كود صَبّ، بْعِدّه، سَنَع حْمى. شمر حْشمَت قهموز ابن شراره، حْشمْتُه، قامت تْرَوّي وتصب من الخبرا بعْداد. يوم جا الفجر هكاليوم الى هو خيّال محوّل على جال الخبرا، انت ياقهموز. والى ابن حصن عنده له نوق، حريدوّات، مثل عْظام العاج، مغاتير، وضح، تاتي له مية ناقه، وهو عليه لُه بِشْت ابيض وهدومه بيض وعلى له حصان خَصي اصفر، زاد مثل البل اوضح. يا مير جايّاتٍ الحريدوّاه

قبل بزغة الشمس. قال: ياخو ثريا والله الحريدوّاه يشرّعن على خَفيف. قال: ما يشرّعن الحريدوّاه، وش بيننا يابن حصن؟ قال: لا، يشرِّعن. وهو يزعَج الحصان على الخبرا وهن يدشّن. جاك ابن حصن يمشي قدّام الراعي والرعي راكب قعْدتُه ملحا يقول والنياق مغاتير. قال للراعي: دش، دشّ، دشّ خلّهن يردن. يقول وهو يدشّ وليا ما جَن قَرارة الخبرا، دشّ بوسطَه يَما صار الما ليا حَدّ بْطونهن وهو واقف قَفْوهن. وهو يقطّ عليه قهموز، انْسبَت عليه. انْسبَت عليه قهموز وهو لك بهكالسيف وهو يَضرِبُه، يَلْسبه، يوم لْسبُه يا قاطع ظْهَرُه، يا والله مثل جْعَرة الحوار قَفْوهن وهو يخلّيه وَزْنهن يطرق ثوبُه. وادْخل يابن شراره على له شمري، دَخَل بالحَقّ. قال: تَرَن بوجهك بالحق. دخل على لُه شمري وخَذَى له له وقت ويرْسل عليه الجربا. يا مير ابن حصن بِسْوَى عند الجربا، شيخ وفارس، يوم قبل الطيّب يْشَحّ بُه. وارسل عليه الجربا قال: قولوا له يجلي، يجلي، الله معطيه ان بَغى عنزة والا مطير والا، لا يقعد بوسط شمر. قال: انا ما اجلي الا الحق يْجَلّينَن، انا ابي الحق، أنا طلاب حق، وجهي قطّع وْفَعَلت بوجهي والى جلانَن الحق اجلي أما بدون حق ما اجلي. الثمرة واحلف عليه انه ما يقعد وسط شمر، ان ما جليت لاذبحك انا بْيدي، يقوله يالجربا. قال قهموز ينخا ربعُه ويْنَعِّرْهُم:

الشيخ باغيني ولا له عَلَي صوك — مْتطايب ربعُه وربعي عْفُون
عيال الشريف محمد من ضنا دوك — ياذرْبَة العربان ما تزعَلُون

قام ينعِّرْهُم ابن شراره وزْعَلوا وتحاربوا ويفزَع الصديد لقهموز. يوم الصديد هاللي سمّوه الصديد والا هو جربا الصديد. وهي تَصْفق بعض شمر مع الصديد، يوم هي تصير صايح الصديد وصايح الجربا، وهي تِتْشطِب شمر، تصير صديد وجربا.

والرواية التالية التي سجلتها من دبيس ابن علوي تبين أن العرب يترددون في إدخال من يفعل فعلا يتنافى مع الأعراف والسلوم المتبعة. تقول الرواية إن فنيطل الوليغي قطع ذكر غريمه فلم يجد بين جماعته من يدخله ويحميه:

فْنيطل الوليغي من البريك، خْريصي، تبادل هو وفلان الجربا اللي ما ادري وش اسمه بخواتهم انت يافنيطل اخته اسمه ساره والجربا اسم اخته زريفه. وزعلوا الجربان وعقّروا اباعر الوليغي، قالوا خمس وعشرين ناقه قالوا ثلاثين ناقه. ركِب هو وصطّى بهكالرجال من الجربان اللي بعض الناس يقولون صطى بذكره وقطّع محاشمه وما ادري كيف. لكن انه زبن. جوه ربعه قالوا والله لو انك ذابح رْقبه او رْقبتين ما عن نزبِّنك لكن انت فعلت شيٍّ ما فْعَلوه لا اليهود ولا النصارى. واركَب وازبن على الدغيرات بالجزيره. ويغزّ اللوا وينطحُونُه. زيزوم العرب هكاليوم هزّاع ابو كْداش ابن هثْمي، والا من الفَزْعة اللي نْطحُه ابوي مهلهل ابن علوي. زبّنوه. قصد عاد:

لي لابة من جان منهم زَرَبني — اللي على القاله قليل محاماه
اللي سَلَفهم يوم شنّف عَقَبني — وحنا على زبن المجنّى عقبناه
دغيرات مثل الداب شوفَه يَهَبْل — والداب لو هو ميّت ما تمَتْناه
توّي لقيت ظْلال راسي وزَبْني — يرعى جِمَلْنا هايت ما هَجَرْناه
ياطيبهم قَصْر على الراس مبني — . . . . . .

بعدين ولدن حريمهم، مرته زريفه جابت عيال وساره جابت عيال. يقول الجربان هكالوقت بعد انهم ما هم اللي يطردون، حلوة سيرتهم، الى فات الشي هكالساعه ما يطردونه. قالوا وصّوا له يالربع يجي. وصّوا له ورد لهم ونزل عليهم. يزعمون المسولفه انه زعج له ذلول يبيض

للدغيرات. يقول:

ياراكب حـــمـــرا توازن حْـــيـــاله حـمـرا سَناد وتفـهق البِـدّ بِمْـتـون

روّحت مرواح شيهان ما ادري وش لونه ياخوي مير هو يقول يوصّفه على الشيهانه حطّت جناحه شماله وما ادري وش يقول به

وهَفّت على جـــالٍ رمت به عـــيـــاله وقلبَـه على حـمـر الحـلاقـيم مـشطون

لى جـيت ابو كـدّاش جـوّد عْـقـاله زيزوم ربعٍ للخـمـاسي يصـبّـون

ولا تقف **الدخاله** عند الحالات الفردية ولا عند البدو فقط. فلربما وجد غزاة قليلون أنفسهم في موقف حرج أمام قوة أكثر منهم عددا فيلتجأون إلى أقرب قرية يحتمون بأسوارها ويُدخلهم أهلها مثلما حدث حينما نهب غزاة من مطير إبلا من عرب ضيف الله ابن عميرة ولما أدركهم ضيف الله التجؤوا إلى أهالي ضرية (بليهد ١٩٧٢/٤: ١١٦-٧ ، عبيد: ٣٠٥)، وكما حدث حينما سرق ابن بصيص مغاتير ابن هندي والتجأ إلى أهل المذنب (بليهد ١٩٧٢/٥: ٢٤٢-٣)، وكما حدث لغزو من شمر حينما التجؤوا إلى بلدة القبيسة هربا من الدليم (فهيد ١٩٩٠: ٢٢٢-٤)، وقد اشتهرت هذه الحادثة الأخيرة التي خلدتها قصيدة شاعر القبيسة صقار المهنا الدريعي الفضلي ومنها قوله يخاطب شيخ الدليم علي السليمان ابن بكر:

أمـرٍ سِـديتـه ياعلي مـا بعـد صـار تبـون وخْـذ ضـيـوفنا غـصب منا

اللـي زبـنّا زابـنٍ ضلـع سنجـار وان صـار حـربٍ دونهم مـا نْتَـوَنّا

ترى الخـوي والضـيف والثـالث الجـار مـثل الصـلاة الفـرض وتزاد سِنّا

في حالة القتل داخل العشيرة بين أبناء العم يحق لأهالي المقتول الثأر لقتيلهم خلال الفترة التي يسمونها **فورة الدم** أو **شعث الدم**، والتي تحدد مدتها عادة بثلاثة أيام وثلث اليوم. ولو أنهم ظفروا خلال هذه الفترة بالمعتدي أو بأي من خمسته الذين يقعون تحت طائلة الانتقام قتلوه وعقروا كل ما وقعت عليه أيديهم من إبلهم أو خيلهم أو مواشيهم "يفدّعون بحلالهم"، خصوصا في حالة عدم احترامهم للأعراف المرعية في مثل هذه الحالة. لكن لو استطاع الجاني وأقاربه الدخول على شخص من عشيرتهم يحميهم ويساعدهم على الهرب والرحيل مع مواشيهم وممتلكاتهم المنقولة فإنه لا يحق لأهل القتيل أن يمسوهم بأذى ولا أن يعقروا مواشيهم أو يخربوا بيوتهم أو يردموا آبارهم أو يقطعوا نخيلهم أو ما شابه ذلك من أعمال العقر والتخريب لأن مثل هذه الأعمال تعد تعديا على حرمة الشخص الذي أدخل الجاني وتقطيعا لوجهه. ما يجري من عقر وتخريب في الأيام الأولى المذكورة يعتبر حقا من المشروع مزاولته وممارسته ولا يحسب عند الصلح من الدية، لأنه تم كرد فعل لفورة الدم. أما إذا تم بعد دخول ذوي الجاني على من يحميهم، حينها يعد أي تدمير أو عقر أو تخريب تعدٍ على المجير ويحتسب من الدية عند إجراء الصلح. وغالبا ما يسارع الوسطاء من عقلاء القوم ووجهائهم خلال فترة فورة الدم إلى تهدئة الأمور ويقومون بإدخال الجاني وبسط حمايتهم له ولأهله ولأموالهم ويساعدوهم ليتمكنوا من الجلاء والالتجاء

إلى قبيلة أخرى بعيدة. ويتحتم على الجاني وأهله أن يبادروا بالجلاء قبل أن تنقضي ثلاثة الأيام المهرّبات المقرّبات ويدخلوا في حماية شيخ من شيوخ القبائل البعيدة عن قبيلتهم الذي يقوم بعد أن تهدأ فورة الدم بدور الوساطة ويبذل مساعيه الحميدة ويبادر بإرسال وفد مع وجهاء عشيرته "جاهيّه" للحصول على العطوه من جماعة المعتدى عليه حسب الأصول العشائرية. وعدم مبادرة الجاني وأهله بطلب العطوة قد يفسر من قبل الجماعة المتضررة بأنه احتقار لهم وانتقاص من قدرهم وتهاون في شأنهم، وهذا مما يعقّد إجراءات الصلح بين الطرفين. والجلاء هو أفضل وسيلة لوضع حد للمضاعفات التي من المتوقع أن تترتب على الجريمة. وقد يستمر الجلاء لمدة سبع سنوات بعدها تسوّى الأمور ويتم الصلح ويعود الجالون إلى ديارهم، وهذا من حقهم. ولو رفض خصومهم قبول الصلح بعد هذه المدة فإن عليهم هم أن يجلوا ليتمكن الآخرون من العودة.

وهناك لدى بعض القبائل عشيرة محددة من نفس القبيلة تستقبل اللاجئين وتحميهم حتى تتم تسوية خلافاتهم مع أبناء عمهم وذلك حتى لا يضطرون للجوء إلى قبائل أخرى. فعند قبيلة بني رشيد تتولى عشيرة الحْشيّات من المهامزه هذه المهمة. وعند شمر تتولى عشيرة الحسين من الدغيرات من عبده هذه المهمة ويسمونها حسين المجلى. ويقولون إنه لا يحق للقبيلة التي تقوم بهذه المهمة أن تمتلك الخيول والإبل الأصيلة والسبب هو إتاحة الفرصة لأصحاب الدم من الهرب لو تمكنوا من التسلل وأخذ ثأرهم من القاتل دون أن تعلم بهم قبيلة المجلى.

> يسمونهم شمر حسين المجلى لأنهم اختاروهم مجلى لهم على وقت الجربا. اللي يصير عليه جرم يجلي عندهم، يزبنهم لما تخلص دعواه ويصلح مع قبلاوه حسب قوانين العرب، يجلي عندهم بدل ما يجلي عند الاجناب. ويقولون انهم لو بالمثل ان زيد ذبح عبيد وجلى عند الحسين واطلبوه قرابة عبيد عند الحسين وذبحوه اطلبوهم الحسين وان امكنوهم وسط نزلهم ذبحوهم وان ما مكنوهم الى من باكر الظهر وهم يطردونهم وان زل الظهر ما امكنوهم يكون اللي اخذوا بثارهم نجحوا وسلموا. والحسين من شان يعطون فرصه لطلابة الدم انهم ينجون من طلبهم يقولون أنهم ما يركبون الاصايل من الخيل والركاب.

ويقول الرواة إن طلال ابن رشيد غضب على الدوح شيخ عشيرة الحسين وفكر في أن يسلبهم حق لجوء الجناة لهم ومنحه لقبيلة الجنفا من الجحيش من الأسلم. وسبب الخلاف، كما ذكر لي دبيس ابن عْلِوي، هو أن

> مخزوم ابن خمسان ذبَح مع غزو ابن رشيد. غزايٍ طلال ابن رشيد ويذبح دْومِيُّه انت يامخزوم ابن خمسان ويزبن على الحسين بقفار. يوم زبن على الحسين قال طلال ابن رشيد الا يجي الرجّال واما جبته يالدوح والله اني انا عقوبتك بالدنيا، والله لاكرفتك بالحبس، الدوح شيخ الحسين. الا يجي الا ما يجي وثلاثة اشهر وطلال ابن رشيد منوخهم بقفار بْسِبّة مخزوم ابن خمسان. جوا عبيد ابن رشيد هكالليله. قال عطن الربابه، يقوله عايد الهقّاز، جِذَعٍ صغير، على اوّلُه، توّه بادٍي يفنهر بالقصيد. جر الربابه قال:

يالدوح واقلبي غـــشـــيشٍ مْطَنّى الله يفكّك من طْعـــونٍ هون بيـــه
يالدوح واشـيخ الجـبل كـد مَـحَنّا مـــحن الحـريم اللي عليـــهن دناويه

شيخ الجبل ابن رشيد.

من عـــقب مـــا حنا زبون المجنّى اليـوم دخـيل بيـوتنا مـا نلفّـيـه
شـــيلوا ياعل بيـــوتكم يهـــدمنّا صـرتوا كـمـا قنٍّ تكصّم مـراكـيـه
اللي عـمل به مـــقـــحم صـــار حنا واللي عـملنا به من الطيب ناسـيـه

مقحم التمياط آخذٍ الروله مرتين قَبِل وهم بوجه ابن رشيد، دافعين له الزكاة. يا مير مقحم التمياط توه مصحب ابن رشيد وجاي من الجزيره وجالس عنده. قال مقحم ول الله يثوّر عليك، الله يقصف شبابك، يجعلك ما يحيل لك الحول ولا يديرك الدور. ولا قام الغليّم سبع ليال الا هو بقبره. جوا العبيد لابن رشيد قالوا الهقاز يقول هالقول. قال رْحَلوا ما به حكي، حالوا، لكن امكنوهم ردّوهم، ابداً، وقصيرهم اللي زبنهم بوجهي انا.

ولا بأس من الإشارة هنا إلى أن تخصيص عشيرة محددة أو مدينة محددة لاستقبال الجناة الهاربين حتى يتم تسوية قضيتهم بالطرق القانونية عرف قديم عند الشعوب السامية حيث نقرأ في الإصحاح العشرين من سفر يشوع:

وقال الرب ليشوع: أبلغ بني اسرائيل أن يعيّنوا لأنفسهم مدن الملجأ كما أمرت موسى، ليهرب إليها كل من قتل نفسا سهوا عن غير قصد، فتكون لكم ملجأ من طالب الدم. فيلوذ بواحدة من هذه المدن ويقف عند مدخل بوابة المدينة، شارحا قضيته لشيوخ المدينة، فيُدخلونه المدينة ويوفّرون له مكانا للإقامة فيها. وإذا تعقّبه طالب الدم فلا ينبغي أن يسلموا المتهم له، لأنه قتل جاره عن غير قصد ومن غير سابق نية حاقدة. ويظل مقيما في تلك المدينة حتى يمثل أمام القضاء ليلقى محاكمة عادلة. وإلى أن يموت رئيس الكهنة الذي يكون في تلك الأيام. عندئذ يرجع القاتل إلى مدينته التي هرب منها وإلى بيته. فخصص الإسرائيليون مدن ملجأ: قادش في الجليل في جبل نفتالي وشكيم في جبل أفرايم وقرية أربع التي هي حبرون في جبل يهوذا. أما في شرقي نهر الأردن عند أريحا فقد خصصوا باصر في الصحراء في سهل سبط رأوبين، وراموت في جلعاد في أرض سبط جاد، وجولان في باشان من أرض سبط منَسّى. هذه هي مدن الملجأ التي صارت ملاذا لكل بني اسرائيل وللغرباء المقيمين بينهم، لكي يهرب إليها كل من يقتل نفسا عن غير قصد فلا يموت بيد طالب الدم، ولكي يمثل للمحاكمة أمام الجماعة (**التفسير التطبيقي للكتاب المقدس** ٢٠٠٢: ٦٢).

والعطوه نوع من الهدنة بين الطرفين المتنازعين يسعى خلالها وجهاء القبيلة لتسوية الأمور بينهما وهي أنواع. العطوة التي تتم في الأيام الثلاثة الأولى التي تسمى فورة الدم تسمى عطوة فورة الدم وهي لمنع القتل والحد من أعمال العقر والتخريب أو أي أعمال انتقامية ولإفساح المجال أمام الجاني وذويه للارتحال والهرب إلى مكان آمن. وحينما يصل الجالون إلى مأمنهم وتهدأ النفوس بعض الشيء تبدأ **عطوة الامهال** التي تبدأ فيها المفاوضات ويتم فيها بذل المساعي لتسوية الأمور بين الطرفين وإصلاح ذات البين بالطرق السلمية. وأخيرا **عطوة الاقبال** حينما يقبل الطرف المتضرر مبدأ الصلح وتبدأ فعليا إجراءات الصلح. وأثناء هذه المداولات قد يدفع أهل الجاني مبلغا من المال للطرف الآخر يسمى **فراش العطوة** والذي قد

يحتسب جزءا من الدية أو التعويض الذي سيفرض ويتم بموجبه الصلح. وأثناء العطوة لا يجوز لأي من الفريقين المتخاصمين الاعتداء على الطرف الآخر لأن ذلك يعد تقطيعا لوجه الكفلاء الذين يسعون بينهم بالصلح. وتختلف شدة العقوبة ومبلغ الدية حسب طريقة القتل وعلاقة القاتل بالمقتول. فالقتل دفاعا عن العرض والمال والنفس لا يعتبر جرما يستحق العقاب. أما من يقتل غدرا أو بصورة شنيعة أو لغرض غير شريف كأن يطمع في زوجة المقتول أو أخته أو ماله فإن عقوبته مضاعفة. والدية التي يدفعها قاتل ابن عمه ضعف الدية التي يدفعها من يقتل شخصا غريبا.

وكان من المعتاد عند بعض القبائل في فلسطين (عارف ٢٠٠٤: ١٠٨) وسيناء (Kennet 1925: 54-5; Murray 1935: 203) وليبيا (Peters 1990: 77) والصومال (Lewis 1961: 141) أن تقوم عصبة القاتل بدفع "**الغرّه**"، إلى أقرب أقرباء المقتول، وهي فتاة يتزوجها بدون مهر على أن يردها إلى أهلها بعد أن تلد مولودا يعوّض عصبة المقتول عن فقيدهم. ولو ولدت الغرة للزوج أكثر من ولد فإن ما زاد عن الولد الأول هو لها ولأهلها ويعود معها إلى أهلها حينما تعود إليهم، إلا إن دفع الزوج مقابل ذلك الولد مبلغا يقبل به أهل الفتاة. أما لو أن الغره قبلت أن تبقى مع زوجها بعد ولادة المولود فعلى الزوج في هذه الحالة أن يذهب إلى أهلها ويخطبها منهم ويدفع لها مهرا يرضونه. إلا أن هذه العادة استبدلت في العصور الأخيرة بتعويض مالي، حيث اتضح أنها إجراء غير عملي، فقد تتعرض الفتاة مثلا لأذى من أهل القاتل نظرا لطبيعة الظروف التي تم بها الزواج (Kennet 1925: 54).

وفي جرائم القتل وما في حكمها يحددون المسؤولية الجنائية عن طريق ما يسمى **العد والطلوع** ويقصد بذلك تحديد درجة القربى بين الجاني وأفراد عشيرته الآخرين. فبعدما يجلون إلى قبيلة أخرى يتوسط الأقرباء البعيدين من الجاني إلى قبيلة المجني عليه من أجل القيام بعملية العد والطلوع بينهم وبين الجاني حتي تتحدد مسؤوليتهم ويتقرر مصيرهم ويعرفون من الذين يشملهم الجلاء ومن الذين لا يشملهم ويستطيعون العودة إلى ديارهم. من يقوم بالعد يمسك بيده جنبية يقبض على نصابها بأصابعه الخمسة التي ترمز لخمسة الجاني، أي أقاربه حتى الدرجة الخامسة، لذلك يسمون الخمسة **قضّابة الجنبية**، مشبّهين اجتماعهم بالجد الخامس بأصابع اليد الخمسة التي تمسك بمقبض الجنبية. يقبض العداد على الجنبية بأصابع يده ويبدأ العد وكلما تلفظ باسم من الأسماء ابتداء من الجاني صعودا نحو الجد الخامس الذي يجتمعون فيه، يرفع إصبعا من أصابعه ابتداء بالإبهام. وحين يرفع العداد أصبع البنصر تسقط الشبرية دليلا على أن المسؤولية تسقط عن الأقارب بعد الجد الخامس. من تثبت طريقة العد أنه من أقارب الجاني من الدرجة الأولى حتى الثالثة (الإخوة وأبناء العم اللزم) يتحمل معه كامل المسؤلية. أما أقارب

الدرجة الرابعة والخامسة فإن بإمكانهم أن يدفعوا لذوي المجني عليه بعيرا يسمونه **بعير النوم** ويعودون فورا إلى مضارب قبيلتهم وتقتصر مسؤوليتهم على المساهمة في دفع التعويض أو الدية بعدما تتحدد قيمتها ويتم الصلح. ومن يجتمعون مع الجاني في **اللامس**، وهو الجد الذي يلي الخامس، فما فوق فليس عليهم أي مسؤولية ولا يطالهم أحد بسوء لأنهم، كما يقولون، **طالعين الدم**. أما من يجتمعون في الجد الخامس فإنهم **يعتبرون داخلين الدم**، ولذلك يسمونهم **الدمويّه** (Murray 1935: 204-5).

من أجل أن تكون أحكام القضاء العرفي نافذة المفعول في ظل غياب السلطة المركزية ولضمان أداء الحقوق يلجأ المتقاضون إلى **الكفاله**، حيث يطلب من المتخاصمين، الطالب والمطلوب، أن يسمي كل منهما كفيلا يتكفل بتنفيذ ما التزم به تجاه الطرف الآخر، بحيث يضمن في حالة المطلوب أنه سوف يحضر مجلس القضاء ويلتزم بتنفيذ الحكم، وهذا يسمى **كفيل الوفا**، أو ما يسمونه **موَفّي مكَفّي** وفي حالة الطالب أنه سوف يكف عن التعديات ضد المطلوب بينما تأخذ العدالة مجراها، وهذا يسمى **كفيل الدفا**، أو ما يسمونه **مْعَفّي مدفّي** (حسان ١٩٨٧: ٢٢٥–٨؛ عارف ٢٠٠٤: ٩٦–٨؛ عبادي ١٩٨٢: ٩٠، ٢٢١؛ Murray 1935: 206, 227; Stewart 1994: 91). ويمكن أن يتفق الطرفان على تعيين كفيل واحد يضمن حقوق أي منهما عند الآخر، ويسمى هذا النوع من الكفيل **قعود المراغة**.[1] ومن مهام الكفيل ضمان مكفوله ضد **الغيبه والهيبه** أي ضد التغيب عن مجلس القضاء وضد التهيب من الوفاء بما يترتب عليه جراء ذلك من التزامات وغرامات. كما يضمن الكفيل مكفوله ضد **الهبش والنبش، والعقب والنقب**، أي أنه بعد أن يصدر الحكم ويرضى به الطرفان لا يحق لأي منهما نبش القضية لاحقا وإثارتها مرة أخرى أو البحث عن أسباب إضافية أو دلائل جديدة من أجل إعادة فتح ملف القضية (حربي ١٤١٦: ١٠٦).

الكفاله والدخاله كلاهما تدخلان ضمن مفهوم الوجه لكنهما تختلفان في أن **الكفاله** اختيارية أو كما يقولون **شْهَوه**، بمعنى أن الشخص حر في أن يقبل أو يرفض تقديم كفالته لشخص آخر، أما **الدخاله** فإنها شبه إجباريّه أو كما يقولون **بَلْوى**. ويوضح خضير ابن حامد الربوض الفرق وأنواع الوجه بطريقته كما يلي:

> وجه العرب قبل له قطْعَة اطراق. طَرْقٍ من الوجيه مَقْطَع الحقوق ما يِمْشَى بُه حق، ووجه يِمْشى بُه حق ووجه شَهْوَه ووجه بَلْوى. الوجه اللي ما يِمْشى به حق هذا الضيف ما تَمْشِي به حق. لو انا اطلب ضيفك هذا ما اخلّيك تاخذ حقك مْنُه، يا مِنُّه جا هَلُه اتبِعُه، هذا ضيف لي والا خوي لي والا جار لي، ما تجيه مَنْفوه الذمّه. هذا الوجه اللي ما يمشى به حق: الضيف والجار والخوي. بِدينا عاد بالدخيل، هذا دْخال البلوى، واقف الشليل، شِليلُه يَطْرِق قِفاوه

(١) وعند بعض القبائل، خصوصا في الحجاز وجنوب الجزيرة، نجد أنه بالإضافة إلى الكفيل يرهن الخصمان عند طرف ثالث ما يسمّونه "**المعدال**"، وهو عبارة عن قطعة سلاح أو آلة حرب ثمينة أو نقود، كتعبير عن قبول القاضي وكضمان لتنفيذ ما يحكم به. ولا يسترد المعدال إلا إذا تم تنفيذ حكم القاضي واستوفى كل ذي حق حقه.

يعني منْحاش. رجل ذبَح له رجل زبَن على هالبيوت، دخل على فلان، ما يدخل الا على الرجل اللي يَطْمَع انه يفِكُّه. يدِخْلونُه ثلاث ليال. هذا يا منُّه زبَن منْحاش على هالبيت فَكُّه راع البيت ثلاث ليال المهَرّبات، كان هي رْقبه وان كان هي صَطْوه لا ما يجلّيه، يفكُّه، كان هي صطوة يَدْ والرجل سلم. المهربات يزبّنُه على الاجناب. وهذا وجه. طقّة العصا أو ذبحة بعير هذا ما تجلّيه تفكُّه وتمشّيه الحق متى ما طلب غريمُه الحق تمشّيه اياوه. والى جت الحق قِضَت، عاد فالج والا مفلوج. وهذا وجه هذا الكفال، يا قلت كفّلتك على حلالي تراوه بوجهك عند هالرجل هذا، هذي شْهَوه، على كيفك، كان تبي تَكْفِلُه ما يخالف والا تعذّره ولا عليك مثلوم، ما تعيّر به. على ما قال وجه بلوى ووجه شهوه.

ولأهمية **الكفاله** في تنفيذ حكم القضاء، فلا بد للكفيل أن يكون شخصا مرموقا صاحب وجه، أي من الوجهاء وذوي الشأن في عشيرته وله من القوة والسطوة والهيبة ما يمكنه من إجبار مكفوله على الوفاء بوعوده وما يلتزم به. فالكفيل في حقيقة الأمر يودع جاهه، أي سمعته ومنزلته الاجتماعية وقيمته الاعتبارية، رهينة عند الخصم لضمان تقيد مكفوله بالإجراءات القضائية السليمة والإذعان لحكم القضاء والوفاء بما يترتب عليه جراء ذلك. ولو حدث أن أخل أي من الخصمين بالتزاماته تجاه الطرف الآخر أو اقترف جناية فيها خرق للضمانات والشروط المتفق عليها أو قصر أو ماطل في دفع ما تقرر في ذمته لخصمه فإن الطرف المتضرر يطالب الكفيل الذي ضمن خصمه بأن يجبر الخصم على الوفاء بالتزاماته ويخاطبه قائلا: **الله يعينك على اللي في وجهك**، وهذا ما يسمونه في عرفهم **تقويم صاحب الوجه** . وإن رأى من الكفيل تقاعسا أو مماطلة خاطبه بصيغة استفزازية كأن يقول: **أنا حارث نارك ومشهّدٍ جارك**. وإن لم يفد كل ذلك وقصر الكفيل عن أداء الحق الذي ضمنه يلجأ المتضرر إلى **السواد**، أي تسويد وجه الكفيل لتقصيره عن إرغام مكفوله على الوفاء بما التزم به. أما إن نجح الكفيل في تنفيذ التزاماته وعاقب المعتدي وحصل منه على حقوق الطرف الآخر أو قام بها نيابة عنه فإن صاحب الحق يبيّض له.

ويبدو أن **الكفاله** و**الوساقه** كانتا معروفتان منذ العصر الجاهلي كما تفيد المصادر في الحديث عن يوم النسار. وكان من أحداث ذلك اليوم أن أرض مضر أجدبت بينما أخصبت بلاد سعد والرباب من بني تميم. فأقبلت بنو عامر بن صعصعة ومن معهم من هوازن تطلب من بني سعد أن ترعى معهم في أرضهم. فقبلت بنو سعد وقالوا بعضهم لبعض: إنه ما اجتمع مثل عِدّتنا قط إلا كانت بينهم أحداث فليضمن رجل من هوازن ما كان فيهم وليضمن رجل من سعد والرباب ما كان فيهم[1]. فكان الضامن لما كان في سعد والرباب الأهتم وهو سنان بن سمي بن خالد بن منقر بن عبيد بن الحارث. وكان الضامن عن هوازن قرة بن هبيرة بن عامر بن صعصعة. ثم إن رجلا من بني ضبة أغار على خيل لمالك بن سلمة بن قشير وغيّبها عند عوف بن عطية

(١) هذا يذكّرنا بما حدث في روضة الأديان حينما اجتمعت شمر وعنزه والظفير في روضة الأديان بعدما تعاهدوا وتكافلوا، وهي التي حدث فيها الخلاف بين مفوز التجغيف وماجد الحثربي.

التيمي. فلما فقد ذو الرقيبة خيله أقبل هو وقرة بن هبيرة إلى الأهتم يسألانه الوفاء بما ضمن. فسألهم: هل تعرفون من أخذها؟ فقالا: لا نعرف. قال اطلبوا واسألوا ونحن نطلب ونسأل فإن كان أصابها رجل من قومنا فأنا لها ضامن حتى أردها. ولما علم الأهتم أنها كانت مغيّبة عند عوف بن عطية التيمي سأله أن يعيدها ولما أنكر عوف أنها عنده قام الأهتم واحتبس إبله[1] حتى أقر بها (بياتي ١٩٨٧/٢: ٥٣٦-٩).

الوجه والحشم

لا أدل على أهمية وجه الإنسان من كثرة الأمثال والعبارات الشعبية والفصيحة المتعلقة به. جاء في تاج العروس "يطلق الوجه على الذات لأنه أشرف الأعضاء وموضع الحواس". فالوجه هو الموقع الذي تجتمع فيه الحواس، خصوصا العينان اللتان بهما نبصر والأنف الذي به نتنفس ونحيا والفم الذي به نتكلم ونعبّر". تأتي أهمية الوجه أولا من أنه أهم علامة على إنسانية الإنسان وما يميزه عن الحيوان، وثانيا لأنه هو عنوان الشخص الذي يحدد هويته بذاته ويميزه عن غيره من الأشخاص، فنحن نعرف الشخص من وجهه، كما في قولنا: **وجهٍ تَعَرفُه ولا وجهٍ تنْكره**، بمعنى شخص تعرفه خير لك من شخص لا تعرفه. وإذا أردنا أن نعبر عن هوية الفرد ونشخصه أشرنا إلى وجهه كما في قولنا بالعامية عن فلان من الناس أنه **وجه** سمح بمعنى أنه بشوش ولين العريكة، وعلى العكس من ذلك قولنا: **وجهٍ وَدِر** أو **وجهٍ غَبَر** أو **وجهٍ كَلْح**، ونقصد بذلك أنه نزر قليل المروءة. وإذا أردنا من شخص مغادرة المكان ننهره ونقول: **ظف وجهك**. وغالبا ما توجه عبارات المدح أو القدح أو عبارات التكريم أو الإهانة إلى وجه الشخص بينما هي تعنيه هو وكأننا بذلك نختزل شخصيته وقيمته في وجهه، كأن نقول: **فلان وجهٍ مبارك** أو **الله يخسّ هكالوجه** أو قبّح الله وجهه أو كرّم الله وجهه. ولأهمية الوجه نجدهم في قضايا القصاص والتعويض عن الجروح يبالغون في فرض التعويضات على الجروح التي تصيب الوجه (Murray 1935: 235-6).

والوجه يعكس العواطف والانفعالات والأحاسيس، كما في قولنا بالفصحى "انطلقت أساريره" للتعبير عن الفرح والسرور، أو "زمّ بأنفه" للتعبير عن الكِبر، أو "احمرّت وجنتاه" للتعبير عن الخجل، أو قولنا في العامية **انعقد حجاجه** للتعبير عن الغضب أو **خرطم**، أي تهدلت براطمه، للتعبير عن الزعل. ونقول للإنسان المنافق أنه **ابو وجهين** وللشخص الذي لا يخجل **وجه ابن فهره** بمعنى أن وجهه مثل الفهر، أي الحجر، لا تتغير ملامحه ومعالمه ولا يبدو عليه الحياء والخجل إذا فعل أمورا مشينة، ومثله قولهم **وجهه ما يندّي** بمعنى لا يندى جبينه ولا ينضح بالعرق خجلا من سوءاته، ويقولون **وجهه مغسولٍ بِمْرِقِه** أي بلغ حدا من الاتساخ بحيث لا يبين عليه أي عيوب أو مخازي إضافية. ومن أمثال العامة: **الوجه فِتر**، والفتر أقل من الشبر، وهو المسافة من

(١) أي وسق إبله.

طرف الإبهام إلى طرف السبابة إذا مُدّا، بمعنى أن مساحته ضيقة لا تتسع طياتها لإخفاء ما يدنس العرض ويخل بالشرف. وإذا أردنا من شخص أن يلزم الحياء نقول: استح على وجهك. وإذا أردنا أن ندعو على الشخص نقول: الله ياخذ وجهك. والبصق على الوجه أو صفعه من الإهانات التي لا تُغتفَر. وحينما يتعلق الأمر بكرامة الإنسان نتحدث عن حفظ ماء الوجه وعن إراقة ماء الوجه.

وكل جزء من أجزاء الوجه له رمزية وأهمية خاصة. فنحن نقسم بعيوننا وبها نفدي من نحب. وإذا أردت أن تبدي استعدادك لخدمة شخص آخر تقول: على خشمي ولو أردت أن ترغم شخصا على عمل ما تأمره به تقول له: فَركٍ على خشمك، وبالفصحى "رغما عن أنفك"، لأن الأنف هو الذي توضع به بُرة الرسن الذي يقاد بها الحيوان قسرا. وشعر الوجه بالذات له أهمية خاصة، وبالذات شعر الشارب واللحية، ومعلوم أن سر قوة شمشون الأسطوري في شعر وجهه. وأكبر إهانة توجه للشخص هي نتف لحيته أو شاربه أو حلقهما أو توجيه عبارات بذيئة لهما. ونمدح الرجل بأنه لحيةٍ غانمه ونسبه قائلين بأنه لحيةٍ عفنه. ويقول الرجل عن نسائه ومحارمه أنهن شعر وجهه، بمعنى أنه يحافظ على عرضهن مثلما يحافظ على شعر وجهه. ولو أنك أردت أن تلتزم بالقيام بمهمة صعبة تقول بهالشارب وتفتل شعر شاربك، عبارة عن العزم والتصميم. وتعبر عن رجائك الحار وتضرعك لشخص اخر بأن تلمس بطرف أصابعك شعر لحيته أو شاربه ثم تقبل أصابعك. ولو أردت أن تضع أي شيء في عهدة شخص ما أو أن تلزمه بتنفيذ أمر ما تقول له إن هذا الشيء في وجهك، بمعنى أنك ملزم معنويا بتنفيذه أو بالمحافظة عليه. وفي المجتمعات الأمية التي لا تعرف القراءة والكتابة يقوم المسح على الوجه واللحية مقام التوقيع والمصادقة على العقود والالتزام بما تم الاتفاق عليه من وعود وعهود. ويقولون: الوجه من الوجه أبيض كناية عن وفاء الشخص بالتزاماته تجاه شخص آخر وإخلاء مسؤوليته على أكمل وجه.

نظرا لأهمية الوجه اتخذ معنىً مجازيا يرمز لكل ما يتعلق بشرف الإنسان وهيبته وسمعته وصيته ومكانته ووزنه الاجتماعي. إنه يمثل الرصيد المعنوي والأخلاقي الذي يحدد قيمة الشخص ونباهة قدره وتقدير الناس لشخصه واحترامهم له. ومن هنا جاء قولنا عن الأشخاص المعتبرين الذين يحظون باحترام الناس وتقديرهم أنهم وجهاء المجتمع. لا شك أن الرصيد المعنوي والأخلاقي للإنسان يعتمد على استقامة الخلق والتحلي بصفات الوفاء والصدق والأمانة والتقيد بالأعراف القبلية وسلوم العرب. هذه الصفات ضرورية لكنها وحدها لا تكفي ليكون الإنسان وجيها، فلا بد لهذه القوة المعنوية من قوة مادية تسندها مثل الثروة التي تمكّن الإنسان من أن يكون كريما والشجاعة اللازمة للوقوف دائما مع الحق وكذلك العصبة القوية التي تقف مع الإنسان وتسانده عند الحاجة لتحمل مسؤولياته والوفاء بالتزاماته. من يفتقر إلى

هذه المقومات يفتقر إلى الوجاهة. ولذلك فإن وجه الرجل العادي ليس له من الوزن ما لوجه السيد والشيخ والفارس ومن في حكمهم من سراة القوم وأصحاب النفوذ. أما البخيل والجبان والكاذب والخائن والمنافق ومن لا يحترمون العادات والتقاليد ولا يقيمون وزنا للأعراف والسلوم فلا اعتبار لهم ولا أحد يحترمهم وليس لهم جاه، فهؤلاء مرذولون لا تقبل شهادتهم ولا تقدم لهم القهوة في مجالس الرجال. الوجه كرصيد معنوي وأخلاقي وكمقياس لمكانة الشخص ومركزه الاجتماعي يزيد وينقص بحسب استقامة خلق الإنسان وابتعاده عن المخازي وقدرته على تحمل مسؤولياته والوفاء بالتزاماته وتعهداته ومحافظته على الأعراف والسلوم، وكلما تهاون المرء في هذه الأمور كلما أراق ماء وجهه. لذا يبذل الإنسان كل ما في وسعه للحفاظ على وجهه، بل ولزيادة رصيده من الوجاهة.

في المجتمع القبلي، والذي يفتقر إلى سلطة تضطلع بمهمة حفظ الأمن وتطبيق القانون، يتخذ مفهوم الوجه أهمية خاصة كأداة من أدوات الضبط الاجتماعي وكمؤسسة أمن وقائية رادعة. فبدون هذه المؤسسة الاجتماعية يتعذر تطبيق القانون العرفي ولا يمكن للعدالة أن تأخذ مجراها. يقول أبو حسان إن الوجه "يكسب قرار القاضي البدوي عنصر الإلزام من خلال العمل على تنفيذه. فكثير من أحكام قضاة البدو كان من الصعب أن تشق طريقها إلى التنفيذ لولا وجود الوجه الذي يلزم كل طرف بتنفيذها من ناحية واحترامها من ناحية أخرى . . . فصاحب الوجه أشبه ما يكون بالسلطة التنفيذية، إذ يحرص بجميع تصرفاته على المحافظة على أمن المجتمع البدوي ودعم مؤسساته ورعاية أعرافه وتقاليده" (حسان ١٩٨٧:٢٢٥).

يبذل وجهاء القبائل كل جهد ممكن لحل الخلافات والنزاعات بين الخصوم عن طريق الصلح والتراضي، والبدو ميالون إلى الصلح والتسامح فيما بينهم. ولو تعذر الصلح بين الأطراف المتنازعة يقوم الكفلاء بتقديم الضمانات والكفالات اللازمة بأن يمتثل الطالب والمطلوب لحكم القضاء في حالة التقاضي أمام العوارف. وإخلال المكفول بالالتزامات التي ضمنها كفيله للطرف الآخر يعد إهدارا لوجه ذلك الكفيل وإحراجا له واحتقارا لمكانته وهيبته، أو كما يقولون **قطّع وجهه**، ومن يفعل ذلك يسمونه **فسّار وجه**. وجريمة **تقطيع الوجه** تعد من الجرائم الكبرى التي تشدد فيها العقوبة وتضاعف الغرامة ويضيع فيها حق المعتدي ويهدر إن كان له أي حق، لأن في ذلك استهتار بمؤسسة ومفهوم **الوجه** الذي يعد من أهم مؤسسات الضبط الاجتماعي في المجتمع القبلي التي تضمن حماية حياة الأفراد وحقوقهم وبدونها لا يمكن للقضاء القبلي أن يكون فعالا وبذلك يختل الأمن (عارف ٢٠٠٤: ٩٤، ٩٦–٨). ويقول العبادي "إن انهيار الوجه كرمز وقانون عرفي يعني فرط عقد المسبحة الاجتماعية، وتداعي الحد المقبول وبالتالي تلاشي العدالة" (عبادي ١٩٨٦: ٢٧٣). في حالة تقطيع الوجه،

يُعتبر الكفيل بحكم المعتدى عليه من مكفوله الذي داس هيبته ومرّغ سمعته في التراب، أو كما يقولون سهج وجهه الذي يرمز للعزة والمنعة وشوكة صاحبه وقوته. وهنا يلجأ الكفيل إما إلى القوة والثأر من مكفوله الذي قطّع وجهه، أي شوّه سمعته، أو إلى القضاء لإجبار مكفوله على الوفاء بما عليه من التزامات تجاه خصمه، وكذلك لغسل العار وتعويضه هو، أي الكفيل، عما لحق بسمعته من ضرر معنوي تجاه التصرف اللامسؤول لمكفوله. وإذا لم يدفع المكفول لخصمه ما عليه من التزامات مادية واضطر الكفيل أن يدفعها عنه بنفسه، فإن الكفيل في هذه الحالة يقوم بوساقة مال مكفوله عنوة حتى يسترد منه المبلغ الذي دفعه عنه لخصمه.

ويدخل ضمن نطاق تقطيع الوجه أي عمل أو قول ينتج عنه الإساءة إلى سمعة الشخص والاستخفاف بوقاره اهتزاز مكانته أو النيل من سمعته بالقذف أو السب أو إحراجه وإظهاره بمظهر الضعف وقلة الحيلة. كل ما يلتزم به الشخص ويقع في نطاق مسؤوليته أو في عهدته أو تحت حمايته أو كفالته فهو في وجهه، وأي تعد عليه أو خرق له يعتبر بمثابة تقطيع وجه ذلك الشخص وخدش كرامته وانتقاص مقامه والحط من قدره. فأي إهانة أو أذى أو ضرر يلحق بالضيف أو الجار هو تقطيع لوجه المضيف أو المجير وانتقاص لهيبته ومكانته وتعد على شرفه، وكذلك هي الحال بالنسبة للدخيل والجار والخوي والمنيع والعاني ومن في حكمهم. وقد تصل غرامة تقطيع الوجه في القضايا المهمة إلى ثمانين ناقة وضحاء، والنوق الوضح ترمز لغسل العار وتبييض الوجه بعدما ناله من السواد. والقضاة الذين يحكمون في قضايا تقطيع الوجه يسمّون مناشد أو مُبَيّضة الوجيه. وأحيانا لا يقبل صاحب الوجه أن يرفع شكاته ضد من قطع وجهه ويقاضيه عند المحاكم، بل لا يرضى إلا أن يقتص لنفسه بيده ويثأر لشرفه ويعاقب من قطع وجهه عقوبة بالغة القساوة ليثبت سطوته وقوته وأن تقطيع وجهه لم يكن ناتجا عن ضعف منه أو قلة حيلة، كم تبينه هاتان الحادثتان أحدهما رواها لي عبدالله ابن شيحان السبيعي وتقول:

> ركبٍ من سبيع تصافِقَوا مع ركبٍ من العجمان وكْسَروهم، السبعان كْسَرَوا العجمان. بعضهم افتك عمره وبعضهم ردوهم. ويلحق سلطان ابن جفيران وهم يمنعون فيهم ويمنع سلطان سعد المتلقّم، يمنعه على بندقه وياخذها وقال دوك غدفتي لى جاك احدٍ من سبيع قل انا منيع سلطان. والى مع السبعان واحدٍ يقال له العايذي قصيرٍ مع سبيع ويَنْدْسِه حرقان ابن شويه، يوشِيه قال: عان ذباح ابوك، اذبحه. قال: وشلون اذبحه؟ مانعه سلطان! قال: اذبح ذباح ابوك لا رحم ابوك. ويطقّه الاه كاتله. يوم جا سلطان والى العايذي ذابحٍ منيعه. جا العايذي من جاه قال: انحش ترى سلطان يبي يذبحك. وينحاش العايذي، يجلي ما ادري وين جلى. خذى له مده، ابطا، ما ادرى وش خذى بمجلاوه مير هو ابطا. وقام يقصد المتلقم يثوّر ابن جفيران ان العايذي ذبح منيعك. الحاصل يوم اخذوا وينكس العايذي نكس على سبيع وينزل على رماح مع هل رماح. والجبور في الرمحيه. رماح والرمحيه ما من بعايد. دري سلطان ان العايذي رجع يم سبيع والى سبيع يبون يمدّون ومعهم العويمر، عجمي، رِفق مع

مديدهم يرفقهم عن العجمان الى وصلوا ديرتهم يم الحسا. قال سلطان لاخٍ له اسمه برغش: شف، كان العايذي مد مع المديد فانا ابذبحه –سلطان مد مع المديد– وان كان هو قعد عند العرب ما مد فانت اذبحه، لا اجيك الا انت ذابحه، انت ما انتاب مادٍّ معنا. ويصير العايذي مع المديد. يوم اكتالوا من الحسا ورجعوا وهي تجيك خبرة الجبور تتلي خبرة العايذي اللي هو معهم. ومن الصدفه يميل شيل العايذي وينوّخ بعيره هو وخوياوه يبون يعدّلون شيل البعير. يوم ان خويا العايذي عدّلوا شيل خويهم وهم يروحون يركضون يبون يلحقون مسوقهم، ربعهم، وهو يَقْطِش وراهم لحاله، هالحين هو صار لحاله وراهم، على ساقة خوياوه. والى الجبور واصلينه وهو يطبّح عليه سلطان وهو يطعنه والى هو طايح. ويحول معه ابن عبلان الجبري ويطعنه بعد. العويمري، العجمي، رفقهم، مستانس على ذبحة الرجال اللي ذبح ابن عمه. قال العويمري:

يستاهل الجبري ثلاثين فنجال ومن الشحم يدعى على كل حايل
اثر بلاه البعد وانا احسبه ذال سلطان شوق منقضات الجدايل
يوم ابطى ما تقاضى ان هذاك جالي.
يستاهل البيضا معَ كل منزال سِجّوا بها ياراكبين الرحايل
ما عاد خلّى راعي الكيل يكتال ولا طاع شور مكثّرين العذايل

قال عاد المتلقّم:

يامن له البيضا مقيل ومسراح من باب هجر الى قفارٍ وحايل
تبنى على جال الحفر هو ورماح وتبنى على روس العدم والنثايل
بيضا لسلطانٍ زبون التمدّاح هو وابن عبلانٍ غَدوا بالنفايل
ارلاد جبرٍ نازلة كل ضبّاح جمال التخوت ولاطمة كل عايل

والأخرى رواها لي حمد ابن شبيب السبيعي وتقول:

حمّاد ابن قذلان السهلي قاصر محمد ابن شبرين القحطاني، امير آل روق، قصيرٍ له ومعطيه حق القصره. ومرّهم بادي ابن خشيم امير المشاعله من قحطان في حَدى مغازيه وخَذى غنم السهلي ووكّلها الغزو اللي معه، كل خبرةٍ تعشّوا لهم على شاة. ابن شبرين كان غايب وبعد ما ألفى قال له قصيره السهلي: يابن شبرين ابن عمك بادي كلا غْنمي هو والغزو اللي معه. بغى ابن شبرين يْخَسَر غنم السهلي لكن السهلي عيّى وثوّر القحطاني بالقصيد.

ياحيسفا يافرقي اللي غدى بوق يرعى به ابن خشيم عشب المسايل
عز لله انك يابن شبرين مبيوق عيّوا على ذِمّك نجوس القبايل

الذمّه، الوجه. ركب ابن شبرين ونحر ابن خشيم. يوم نوّخ عليه: وش علومك يابن شبرين؟ قال: علومي جاي ابي غنم قصيري. قال: ما عندي لكم غنم انت وقصيرك. انتخى ابن شبرين قال: انا ابن روق. قال ابن خشيم: انقلع عن وجهي وراك ياسلح روق. لى مير ابن شبرين معه شليفا ما هيب جيده، رديّه، دجما. وهو يروح ينصى اللي يواليه من البلِد وهو ينحر ذاك الحداد، قال: اذلق الشلفا، دجما، اذلقها وزد في الذلقه. والى هم موكّدين انهم ماشين كل خْبَر قحطان، كلٍّ على اميره، مادّينٍ الحاطه، حوطة بني تميم، يتوسّمون من الحاطه بالصفري يبون يكتالون منها تمر. يوم ذلق له الحداد الشلفا وجاهم والاهم معشّينٍ في ذاك الصيهد، كل جماعةٍ على اميرهم. والى هو موكّدٍ غريمه. ابن شبرين جماعته حاطّينٍ له شداد ومتراكيٍ عليه. وهو يعدي عليه وهو يعتزي وهو يسجه بالشلفا لى هي تخرفش بالحزم من ورا كبده، لهفُه على الكبد يا مطيّرةٍ شنق جنبه وقصبة ظْهَره لى هي تخرفش بالحزم وراه. وهو ينحاش،

يروح يدخل من خبرة لى خبره: دخلكم يآل فلان انا ذابح ابن خشيم في غنم قصيري. هالخبره اللي تواليه هذي يزبّنونه ويردّون الطلب عنه ويعدّونه للخبرة اللي وراهم، وذولاك بعد يردعون الطلب عنه ويعدونه للي وراهم. وعلى هالطريقه لين ظهر من يجي اربع خْبَر وهو يتشعبط راس ذاك الضلع. والطلب يدوّرونه بين الخبر يحسبونه عند حدى هالخبر الى هالحين. يوم وصل راس الضلع لى مير فتايل الحنشل تذعذع تقول الوحده مثل ذيل الجزبوع، حنشل يرصدون هالخبر يبون ياخذونهم. ياولد وش انت؟ قال: انا محمد ابن شبرين من آل روق وذابحٍ في وجهي واحدٍ من ذا العرب وراي واليوم انا زابنٍ الله ثم زابن ذا الضلع ما دريت انكم فيه وذا الحين قدني زابنكم. قالوا: اقبل الله يحييك، حنا بعد نبي نحوف ذا العرب. ويزبّنونه. يوم وصل العلم السهلي قال له ابيات

جليت عن وجهك عسام السواد واطفيت ضو مكبّرين المصاهير

يعني ان ابن خشيم رجال كريم.

هذا جزا للي يجيكم عناد شلفا تلظّى حاديتها المساير

وبنيت لك بيضا على كل وادي بيضا تبوج بها البيوت الدواوير

ويعتبر تقطيع الوجه عار لا يمحوه في نظرهم إلا **سبع تصبيحات** أو **سبع هويات**، بمعنى أن يشن صاحب الوجه سبع غارات صباحية على من قطّع وجهه ويخرّب كل ما تقع عليه يده من ماله ولو تمكن منه قتله أو جدع أنفه أو أصابه إصابات بالغة (زكريا ١٩٨٣:٢٧١؛ عزاوي ١٩٣٧–١٩٥٦/١: ٤٢٥). وقد رأينا في حكاية سابقة نقلناها عن ابن بليهد كيف أن حمدان ابن مسعد أمير الدلابحه قطع أنف من تعدّى على ضيفه. ويسمون ثأر صاحب الوجه لتقطيع وجهه **حشم الوجه**، وهي مشتقة من الحشمة والكرامة والقدر لأنها تعيد للشخص الذي قُطعٌ وجهه ما افتقده من الحشمة والقدر والكرامة والوقار وترد له الاعتبار. والسالفة التالية التي رواها لي عايد الربوض تبين خطورة تقطيع الوجه:

عْلوم الدريبسي راعى الكْحَلا، الكْحَلا ذلولُه: علوم ياحامي الهجن// يا حوّلوا بالبوارِيد، من الدرابسه من الثنيّان. علوم فارس وعنيد ومعروف، على وقت غريّب ابن معيقل. علوم عنيدٍ وبُه وطْبِه شوْيّ، وفيه بناخيٍ له يقال له هْطيلان تقل انه رجّالٍ ضعيف وعلوم واطيٍ عليه وكنّه بَغى يطمع بْحَلالُه وهو حَيّ. يقول انت ما لك مارثَه وانا مارثَتَك وطمع بحلالُه وحاول ياكل حلالُه وهو حي بصفة استصغار، يقول انا واليك ولا لك والي غيري. قام هطيلان وادخل بعارينُه على منوّخ ابن قازي الربوض، قال: علوم عَوير ويبي يارثَن وانا حَيّ وحلالي ما ابيه ياكلُه. قال منوّخ: ياعلوم والله بناخيك ادخل بعارينُه عَلَيّ. قال: ادخل على الله لا تدْخل بعاريني عْني، هذا انا وريثه وانا ولي امرُه ولا لك به دعوى انت. قال: علّمتك عاد، كان لك به حق تمشي حق، الحق مفتوحٍ للجميع، وكان ما لك به حق فالبعارين بوجهي ما تجيْه. منوخ مربّعٍ مع بادية السلمان شمال النفود، يم الحزول، وعلوم الدريبسي بضواحي حايل حول الحْفير وقْنا، هو وابن عمه. قازي، ابو منوخ، فلاحٍ بالحفير والولد بْدوي. جا علوم وتحيّل بالشايب، ابوك يامنوّخ، قال: انت ما تفكّن من ولدك هاللي ادخل بعاريني عْني، ما له حق عَلَيّ، تعرّضن الشاشات والادخال والسوالف، وهذا عَواجةٍ بولدك والا وش دخّله بيني وبين بناخيّي. قال: من هو؟ قال: هطيلان، هطيلان ما له حق يدخله عْني، هطيلان لو يموت اليوم انا وريثه. قال: رح يالدريبسي كِلْ هطيلان من راسه الى اذانه الله لا يَعَقْلِك انت وهطيلان معك، لا بالله ترانا

نافضين عْنُه ولا هو بوجهنا. غار على هطيلان وخَذى بعارينُه ورَحَل من الحفير وفَضّ للسويد، زبَن عليهم . والى علوم مْعَروف، فارس وعنيد ويثني ورا الكسيره، ما هوب هويّن، ولكنه بالوقت اللي ما به مغازي يتضغّط جنوبه، حتى اللي حوله يحِسّ عليهم. نفَض عنه قازي قال ما هو بوجهنا. فرِح بهالكلمه وْخَذَه لكن خاف ان قازي والربضان اللي معه شمال انهم يتعكّضون على الوجه. قال انا مير ابتوسّع يم السويد، اصير عند السويد واشوف. الربضان دَرْيَوا انه نفَض قازي عنه ابوك وانه ما يحِق لقازي ينفض، ما ينفض الا مْعَقود الردن. قام ووصّى له، قال: يا جيتوا علوم ينْكس بعارين هطيلان عليه وانا ترون بِمّا اصبّحه والا امسِّيه، لأن ابوي ما يمون ينفض عنه، انا معقود الردن. هذاك الى بغى يدخِل يْعَقِد ردِن هالواحد يقول تَرَن داخل بوجهك ويعقد ردْنُه. الدخالة اوّل عند البدو يَقْمِز ويْعَقِد ردنه وبالوقت التالي هذا يعقد طرف غدْفتُه. هذا يعني سلومهم. قام وْوَصّى ودِري وهو عند السويد حول الشبيكه. ركِب منوّخ ومعه سبعه وعَدَى من الحزول على علوم الدريبسي عند السويد. ولا تمكّنه، كنّه غيِّب او انتبهت السويد وفْزَعوا على الربضان لأن هذا دخل عليهم. وقالوا كان الربضان يبون الحق حنّا نمشّي علوم لهم وان كان الربضان ما يبون الحق فلا يجون علوم وهو زابن علينا. حوّلوا على البل وجوا البل عندَه راعي لُه يقال لُه السعيره، ابن عم له وحوّلوا عليه وضْرِبوه وشْلْقَوا خشمُه بْلُه عجرا، شْلْقُه مطلّق ابن حويدي الربوض. وهجّت البل وشافوا الرجال طْلَعت عليهم وهجّوا وخلّوهن. يوم جا بالربيع وهي تربّع الناس وهي تنْحَدِر ويصير الربيع من حايل وشرق. وهم يحدّرون السويد وعلوم معهم. والى ما نْزلوا الشامات هاللي من عند زرود. ويدرون الربضان ويركبون عليهم سبعة آخرين عقيدهم منوخ. وهو يركب فْرسُه وينحاش علوم عن البل. وهم ياخذون البل، اباعر هطيلان واباعر علوم ويَدخْلون على ابن رمال. جَوا عند ابن رمال، قال ابن رمال: علوم دخل علي قَبْلِكم هو هذا عندي ولكن نبيكم تَواجهون وتمشون الحق. قالوا: حنا ما نبي الحق. اثاري ابن رمال تحيّل بهم وخَذى بواريدهم من عند الركاب وكفِّهن بالمحَرَم، قال منوخ: ما يخالف حنا نبيه يجي ونبي نْتَحاجّ عندك هالحين وحنا راضينك انت يابن رمال. قاموا الربضان متحيّلين يبون يطلعونه والى طلع يذبحونه. اثاري ابن رمال اخذ بواريدهم ويوم انتبهوا انهن وِخْذَت بواريدهم قالوا: يابن رمال وقّف علوم لا يجينا. قال: ما تبون الحق؟ قالوا: ما نبي الحق. قال: ابن رمال اجل البل بوجهي واما اباعر علوم ترجع لعلوم لأن قانون العرب ابن عمك ما تاكل حلاله واما البل اللي بوجهكم انتم يالربضان خُوذُوَه. خَذوا البل. قال منوخ انا ما استريح كود اصبّحه سبع تصبيحات عن وجهي، ما تكفين اخذة البل. صار ثاني سنه هو وايّا ابن عمٍّ له راعي له، الهنيدي من الدرابسه، راعي لاباعره وهو معه وجاهم لهم واحد وعلّمهم قال: ترى هو هذا هو وايا راعيه عند اباعره بالمطَبّ الفلاني بهالظهرة شمال. وهم يركبون الربضان ويصبّحونه. يوم جَوا والاوه غازٍّ عباتُه متظلّل به عن الشمس بهكالفيضة والبل رابضة عندُه والفرس بحديدَه. هو داهيه. قالوا: شوفوا، نبي نتفرّق له على شان ما ينحاش. وانتم اثنين او ثلاثه يغيرون عليه والباقين يتفرّقون، هم سبعه. غاروا عليه غَصيبه وعايش وشايم ومطلّق. عايش بواردي. ضْرِبه حديهم بْلُه قناة وهو نيم، ما انتبه له الا يوم فاع وهو يضربه والى هو طايح. وعايش معه البارود وهو يرميه واخطته صارت بالعباة. وهو يشطّر يده، اخْطته البارود، وهو يشطّر يده قال: ياغصيبه، غصيبه ابن الغفيلي الربوض، اخو منوخ، معه سيف ومطلّق معه دبّوس، قال: ياغصيبه –وهو يرفع يدُه، يعرف القوانين هو، وهو يرفع يده– قال: ياغصيبه ادخلوا على الله هذي يدي واسلموا عمري. وهو يضربُه غصيبة مع يده من بين الصبعين ليا شالقة يدُه شلْق الى ما عقّبت الكف على الذراع، شلق مع نصفَه. فْضَخوه، شلّقَوا خشمُه، وسِّمَوا وجهُه،

وراحوا وخلّوه. قالوا حَقِّنا وتقاضينا. وسمّيَوا الربضان معطّرة الوجه لأن الوجه يتعطّر بثلاث تصبيحات حسب قانون البادية. قصد عاد غازي ابن دهام الربوض قال:

ياعلوم ياحـــمّـــاي تالى الركـــايب	شظّيت لك حـــملٍ ثُقـــالٍ عـــراويه
ياعلوم مـــا حـــسّـــبـــتنا لك قـــرايب	حنا الى عـــصّى صَـــعَـــبْكم نْهَـــدّيه
قطّعت لك وجـــهٍ على غـــيـــر صـــايب	وجـــهٍ لنا ياعلوم صـــعـــبٍ تخطْريه
تبي تْمَـــشّـــينا لعـــوج الطلايب	مـــا ينْمـــشي حقٍّ على غـــيـــر داعـــيـــه
آخـــذ حـــشم وجـــهي على غـــيـــر طايب	بمْـــصَـــقّلٍ يا ضْـــرب به الكف يرمـــيـــه
جـــيناك فـــوق مـــحـــاضـــيـــات النهـــايب	واقـــــفن بذودك يوم كـــــفّك تداويه
يمناك وش وقْـــعَـــه بكثـــر القـــضـــايب	عن الشِّـــمَم يابنت قـــيـــفي وحـــاضـــيـــه
يازينة العـــيـــنين شـــقـــــرا ذوايب	حطّي حْـــجـــالٍ من ورا حـــجـــال ذَرّيه

ويقولون في أمثالهم: الوجه ما يركب على الوجه. أي أنك إذا كنت في وجه فلان من الناس فلا يحق لك أن تطلب وجه شخص آخر، كما لا يحق لأي شخص أن يقدم لك وجهه لأن ذلك يعد انتقاصا من قدر وجيهك وعدم ثقة بمكانته ومنزلته ومقدرته على حمايتك واسترداد حقك، فلا بد لك قبل أن تلجأ لوجه شخص آخر أن تعتذر من وجيهك وتطلب منه السماح لك بطلب وجه الشخص الآخر، بمعنى أنه لا يمكنك أن تطلب وجه شخصين مختلفين في وقت واحد لأن مثل هذا الإجراء أصلا قد يقود إلى الفوضى والغموض وتداخل المسؤوليات.

وعادة السواد والبياض أحد الآليات الفعالة التي تدفع صاحب الوجه إلى الحرص على الابتعاد عن كل ما يشوه سمعته ويهز مكانته. التبييض والتسويد يتم بأن ينشر صاحب الحق راية بيضاء أو سوداء في الموارد والأسواق وفي مواسم الحج وفي أماكن التجمع ويعلن المستفيد بأعلى صوته: **بيض الله وجه فلان** بينما يعلن المتضرر: **سوّد الله وجه فلان**. وهناك طرق أخرى للسواد والبياض منها نصب رجم مرتفع عند الموارد وعلى الطرق الرئيسية من الحجارة البيضاء أو السوداء، حسب مقتضى الحال، يضع عليه الشخص المتضرر وسم الرجل الذي يريد تسويد وجهه أو تبييضه. والرجل الذي يطال وجهه السواد بهذه الطريقة يقولون عنه **بيته مهزوز ورجمه مغزوز**. وقد يتم البياض أو السواد شعرا عن طريق قصائد المدح أو الهجاء. والبياض والسواد عادة قديمة عرفها العرب منذ عصر الجاهلية. يقول شوقي ضيف "كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء في مجامعهم وأسواقهم حتى يُلحقوا به عار الأبد ويقولون في أمثالهم: إن لكل غدرة لواء. يقول الحادرة لصاحبته سميه: أسميُّ ويحك هل سمعت بغدرةٍ // رُفِع اللواء لنا بها في مجمعِ (ضيف ١٩٦٠: ٦٩). وإذا غدر الرجل بجاره أوقدوا نارا على أحد الأخشبين بمنى أيام الحج ونادوا: هذه غدرة فلان. وربما صنعوا للغادر تمثالا من طين ونصبوه ليراه الناس ويسألو من يكون.

وفي الحادثة التالية التي سجلها منديل الفهيد (١٩٨٥: ٥٢-٣) يسجل فرز الحافي العتيبي شكره وامتنانه لأمراء الجياشة من بني الحارث الذي أعادوا له إبله

المنهوبة علما بأنه لم يكن له أي حق عليهم ولا حجة:

نزل فرز الحافي العتيبي بجوار ناصر بن عاتق أمير الجياشية من بني الحارث وذات يوم ناول فرز فنجال القهوة لناصر وقال له مازحا: هذا الفنجال مجورة نياقي لو اخذوها قومك لزمك ان تردها ياناصر. وفعلا بعد مدة من رحيلهم عنهم أغاروا على أبله ونهبوها. فتذكر فرز فنجال المجورة القديم الذي ناوله ناصر وصمم أن يطلبهم رد إبله عليه لقاء ذلك الفنجال. فسخر منه قومه لأن حجته ضعيفة ولكن بني الحارث ردوا عليه نياقه إكراما له وإن كانت الأعراف لا تلزمهم بذلك، فقال يبيّض لهم:

ياروق ياللي للسوالف هجاجِ	ردّوا سلامي يم ذربين الايمان
ردّوا سلامي يم ناصر وناجي	ذوي سليم وما اخّر العود فطحان
ناصر لاهل عوص النجايب سراج	يروي شباة السيف حزّات الاكوان
أدّوا نياقي ما وراها مناجي	أدّوا عليّ العِرْب حلوات الالبان
بَعَد خذوها بالحزوم الزراج	قالوا كثير الناس ما فيه عِقلان
جتني ولا فيها جوابٍ عَواجِ	وحيّاك ياعلمٍ من الراس قزحان
أهل بيوتٍ بيّنه ما تلاجي	يفرح بها اللي حدّه الليل جيعان
وان جا نهارٍ فيه غيم وعجاج	عاداتهم يثنون من دون الاظعان

الحق للقوة

في القبائل التي تعيش على حدود المناطق الريفية داخل حدود الدولة وفي نطاق هيمنتها كما في بلاد الشام وبلاد الرافدين وكما في اليمن والحجاز قديما نجد أن القانون العرفي يتخذ إجراءات متطورة ويتم تطبيقه بقدر من الصرامة والانضباط. يلاحظ أن اقتصاديات هذه القبائل شبه المستقرة في طريقها إلى التحول من اقتصاد رعوي مرتحل إلى اقتصاد زراعي مستقر ويبدأ الاتجاه نحو الاستثمار في الأراضي الزراعية والعقار بدلا من الماشية. الاستقرار والمساكن الثابتة تحد من إمكانية الانخلاع من قبيلة والالتحاق بأخرى أو الهرب واللجوء إلى قبيلة بعيدة في حالة الجرائم الخطيرة مثل القتل، كما أن الأموال الثابتة غير قابلة للوسق. الحد من الحركة وتقييد الحرية يجبر القبائل شبه المستقرة على احترام القانون ويدفعهم للجوء إلى القضاء والتقيد بأصول المرافعات القضائية وإلى الصلح والتوسط لحل الخلافات وإصلاح ذات البين بدلا من الثأر واللجوء للعنف. كما أن استخدام الكتابة يسهل إمكانية صياغة المواد القانونية وتسجيلها وتنظيمها وتوحيدها، إضافة إلى تدوين العقود والاتفاقيات. ويصبح هذا الشكل من التنظيم أكثر إلحاحا مع ظهور اقتصاد السوق ونشاط التبادلات التجارية والتعاملات النقدية.

ولكن كلما توغلنا في عمق الصحراء بين القبائل الرحّل الموغلة في البداوة والتي ليس لها علاقة بالحضر أو ارتباط بالدولة نجد أن طبيعة حياتها المرتحلة وانتشارها على مساحات واسعة ومتباعدة لا تسمح بتركيز السلطة في يد شيخ أو أمير وإنما هي موزعة بين جماعات الخمسة بحيث أن جماعة الخمسة تأخذ على عاتقها مسؤولية تفسير القانون وتطبيقه دون اللجوء إلى المحاكم أو الإجراءات القضائية.

هذا النمط الانقسامي التمفصلي segmentary من التنظيم القبلي ما هو إلا عبارة عن جماعات متقابلة تكاد تكون متقاربة في الحجم ومتكافئة في القوة. كل جماعة من هذه الجماعات، التي يكبر حجمها أو يصغر تبعا للصعود أو النزول على قُمع النسب الذي يستدق كلما صعدنا إلى أعلى ويتعرضن كلما نزلنا إلى أسفل، تحاول أن تحافظ على مركزها ورصيدها من القوة وتدفع تعديات الجماعات الأخرى وتجاوزاتها على حقوقها من خلال نزاعاتها وصراعاتها المستمرة معهم، الحربية منها والقضائية.

تحقيق العدالة بمفهومها الموضوعي المجرد يستلزم توفر شرطين أساسيين، أولهما فصل المسؤولية الفردية عن المسؤولية الجماعية وثانيهما وجود الدولة بما تمثله من سلطة مركزية مجردة تعلو على الأفراد ومنفصلة عنهم، وبما لها من مؤسسات رسمية قادرة على فرض القانون وتطبيقه بالقوة القاهرة. أما في القانون العرفي فإن الأشخاص المعنيين بصفتهم الاعتبارية هم الذي يناط بهم مسؤولية رفع القضايا إلى المحاكم العرفية حسب اختيارهم ورغبتهم أو حسب قدرة المدعي على إجبار المدعى عليه على الانصياع للعدالة وحكم القانون وفق ممارسات عرفية ومؤسسات غير رسمية لا تملك من القوة ما تستطيع به أن تجبر الناس على مراعاة القوانين والالتزام بها. لذا فإن القضاء العرفي لا يضمن بالضرورة تحقيق العدالة؛ لأن القوي فقط هو الذي يحصل على حقه ويحافظ عليه من تعديات الآخرين. صاحب الحق الذي لا يملك القوة لن يحصل على حقه حتى لو كانت حججه قوية وكَسَب القضية في المحاكم، تقول ظاهرة الشرارية **الحق ظلما والمصقّل دليله** ويقول الآخر: **الحق يبرى للسيوف القواطيع**، ويقول الآخر:

من لا يَعَدْل الحق بيشذرة السيف بيته هديم وفوقه الحق مال

هنا يصبح استعراض القوة عاملا حاسما في كسب القضايا القانونية حيث لا يوجد سلطة عليا مطلقة ومجردة تعلو على الأفراد كسلطة الدولة التي تحرص على تحقيق العدالة بصورة نزيهة وحيادية وموضوعية ولا ترضى بخلاف ذلك ولا تتهاون فيه. مفهوم السلطة العشائرية مفهوم متدرج يبدأ من سلطة الأب على أبنائه مرورا بشيوخ العشائر وانتهاء بشيخ العموم، وهي سلطة أخلاقية تستمد شرعيتها من صلة القرابة لكنها غالبا ما تفتقر إلى القوة المادية التي تمكن الشيخ من فرض إرادته، أو حتى فرض القانون العام إلا في الحدود الدنيا، لأن القانون العشائري قانون خاص أكثر منه قانون عام. لذا فإنه ليس من مهام الشيخ القصاص وفرض تنفيذ الأحكام القضائية إن لم يكن طرفا فيها بصفته الشخصية، فهذه مسؤولية أصحاب الحق أن يحصلوا على حقهم من غريمهم بعد صدور الحكم، وهذا يحدده عاملان؛ قوتهم ورغبة الطرف الآخر في تسوية الأمور. فليس من صلاحيات السلطة

السياسية، حسب المفهوم العشائري، تنفيذ أحكام القانون، فذلك من اختصاص قرابة المجني عليه، لأن صلة قرابتهم مع المجني عليه تمنحهم الحق في القصاص. ولو أن شيخ القبيلة حاول أن يفرض القانون على الطرف المدان لاعتُبر ذلك تعد منه لا مبرر له ويجعله عرضة للثأر من أقرباء المدان لأنه ليس طرفا في القضية ولا تربطه بصاحب الحق قرابة يستمد منها شرعية عمله.

تشكلت بذرة الأعراف البدوية في ظل تنظيم قبلي هش كوسيلة للتكيف مع بيئة الصحراء القاسية المتقلبة مع ما تفرضه من تنافس حاد على مواردها الشحيحة. في ظل هذه الظروف الصعبة لا يستطيع العيش عيشة كريمة مرفوع الرأس إلا الشديد القوي القادر على الصبر والتحمل. القوة والمثابرة والصبر والإصرار والعناد قيم يقدسها البدو، وبالمقابل نجدهم يأنفون من الضعف والتخاذل والتهاون. الثقافة البدوية مسكونة بهاجس القوة للتغلب على تحديات الحياة في الصحراء. حكايات البدو وأشعارهم مليئة بالإشارات إلى أنهم يحترمون القوة وأن الحق للقوة. ولتوضيح هذه الفكرة والتأكيد عليها نجدهم يستعيرون مجازاتهم من محيط الصحراء الطبيعي. فالرجل القوي الذي يخافه الناس ويحترمونه يشبهونه بالحيوانات المفترسة والطيور الجارحة مثل الذئب والنمر والصقر والعقاب. أما الرجل الضعيف فيشبهونه بالطرائد مثل الحبارى والأرنب أو يشبهونه بالرخم والضباع والثعالب وغيرها من الحيوانات التي تعيش على الجيف وفضلات ما تصيده المفترسات. الضعيف في الصحراء يصبح فريسة للأقوى لأن "**اللي يْتَحَلْوى الناس ما يرحمونه**" ولأن "**الناس ما ترحم دجاج على بيض**". يقول حميدان الشويعر في مقارنته بين القوي والضعيف:

الارنب ترقد ما توذي ولا شفت الناس تْخلّيها
والسبع الموذي ما يرقد وْلا يوطا بارضٍ هو فيها
خوفٍ من خبطه بكفوفه كلٍّ يبعد مناحيها

ويقول يزيد بن الخذّاق الشنِّيّ مهددا النعمان بن المنذر ويفخر بقومه واستعصائهم على من يبغيهم الذل والخسف:

أحَسِبتنا لحما على وضم أم خلتنا في البأس لا نجدي

العيش في الصحراء امتحان صعب لا يتجاوزه إلا الرجل الصلب صعب المراس. من يتساهل في الدفاع عن حقوقه سوف يأمن الآخرون جانبه ويتجرؤون عليه ويسلبونه حقه بالقوة، فهذه هي شريعة الحياة في الصحراء. وينعتون مثل هذا الشخص بأنه هتمه ، والهتمة قطعة السكر لذيذة الطعم التي تذوب سريعا في الفم ولا تحتاج إلى أي جهد لمضغها. لذلك يحرص الرجل على أن يدافع عن حقه وإذا لم يستطع أن يحصل عليه بالطرق القانونية فإنه ينتزعه من خصمه بالقوة وحد السيف. يقول زهير بن أبي سلمى:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يظلِم الناسَ يُظلَمِ

ويقول عمرو بن برّاقة الهمداني:

متى تجمع القلب الذكي وصارمٍ وأنفا حميّا تجتنبك المظالم

والحكاية التالية والتي سجلتها من عدد من الرواة هي أقرب إلى الأسطورة منها إلى القصة الواقعية التاريخية لكنها توضح لنا احترام البدو للرجل الذي يتشبث بحقه ولا يفرط فيه:

الخْرِصه هكالحين اميرهم ابن حصِن، نازلٍ على سهْلة التيم. قال: من هو اكرم شمر؟ قالوا: الصيلوان راعي موقق، غْفيلي. قال: من هو اقصاهم على السالفه، على حقُّه؟ ما يتساهل بحقُّه، ياخذ حقُّه وافي. قالوا: رِشيد ابن رخيص. قال: يالله يالخرصه تَرُونا غزو. وهي تركب معه الناس ويمدّون غزو. قال: ترانا نبي نَخَطر الصيلوان ما حنّاب متفرّقين، نبي مناخة الصيلوان. وينوخون بموقق ويَخَطرون الصيلوان. هي استمحان غزوته. يا مير هكالوقت قصْف، الناس هكالحين ضْعوف ما من صمايل. وهم ينوّخون، جَمْعَة كبيره. ويجيب المعاويد ويذبحهن. قال: انتم ياهل موقق نبي معونتكم لنا بالقدور والحريم يطبخن. ودلّن يطحَنِن الحريم طحين ويذبح معيده الصيلوان وغنيمه ويكرمهم. يوم طْبخوا الضيفة واللحم وهو يْمَشْتِر هالصحون بالسوق وهو يقلّطهم. يوم قلّط الصحون قال: قوموا سمّوا على عشاكم. يوم قْلَطَوا يا مار خَطاة الواحد هالصحن ما عليه الا رجل والا رجلين. يقولون صحن ما عليه الا رجل قال: يالربع انا دوّروا لي احد يواكلن. قال: والله عاد قْصرت مروّة خوياك، بْركتهم قْصرت عنك، هذا من قل ربعك. يقوله الصيلوان. قال خلاص لقيت الصحيح السالفة هذي اللي ذْكِر ان الصيلوان أكرم ما بنجد لقيته صحيح. تضيّفوا وامرحوا يوم جا الصبح من باكر وتمر ومثله وزهّبهم، امِل مزاهبهم ومِدُّوا. يوم مَدَّوا، قال: والله اننا هَقْوة ان هالعرب اللي حنا غازين عليهم –يبي يغزي على عنزه اول اهل العْصام– هقوة انهم والله انهم استنذروا بنا لكن حنا نبي ننكف ونبي يما نبْرِد. وهو ما هو صاق. يوم جا قاع الصير من عند الحميرا اللي بْشَنَق قاع الصير والى هذا طْلاس ولد رِشيد مع شياهه. هكالغنم وشّي؟ قالوا: هذي غنم ابن رخيص. يا مار مَعَه ولد لُه جِذع اسمه طْلاس، ولد لرشيد ابن رخيص. قال: وين هَلَك ياليد؟ قال: والله هذولاك هلي، مير جاي يمينكم يم العرب وتغدّوا والله محيّيكم. قال: والله ما حناب عادلين ندوّر لنا ابّار لاصقٍ له بشطب ضلع لكن يالله ياعْيال خوذوا لنا غَداكم اليوم. قال: انهجوا يافلان وفلان انهجوا هاتوا لنا ذبيحة من الغنم نتغدّى عليَه. وانحروا الغنم وهم ياخذون هكالعنز. قال: الذبيحة خلوه عند اهلنا، جايّ من دونكم، انحَروا خوياكم وروّحوا يم اهلنا وتاكلونَه عند اهلنا. يقوله الجذع. قالوا: ما حنا ناهجين ندور لنا ضبٍّ بله جحر، هم بْلِحيظ الضلع، بجال الضلع. يعني استمحان. وهم ياخذون هكالعنز، يقولون انهم اخذوا جْذِعه، وهم يجونك، وهم ينهجون. يوم جا طلاس يم ابوه قال: والله يبه جونن لي جَمْعة، قومٍ اليوم يقولون اميرهم ابن حصِن واخذوا حدى معزاي، خَذَوا عنز وجْذِعه ضواين. قال: ايه هذا عمل الرجل اللي ما يَعَزْم الرجال ياخذون ذبيحتهم، ليه ما عزمتهم؟ قال: والله يابيه عزمتهم. قال: وش قالوا؟ قال: هذا وما قالوا لي، يقولون ما حناب مدوّرين لنا ضب بله جحر. قال: لا بالله ياولدي يا صار عزمتهم لا بالله ما لهم حق عليك. وهو يوم جا تالي هالليل وخذ زانتُه وهو لك يسري على رجليه، أخذ شلفاوه وجاك سالٍّ شلفاوه متّبعهم. ليا مار هم على التيّم، التيّم ما هو عنهم بعيد. يوم جا الضحى من باكر الى

مار هو يطلع عليهم. يوم انه اقبل يا هذي العرب، الدِّبَش على الما ومعهن نياق ابن حِصِن والى والله العرب غياب. جا له رجّال قال: من هو هكالبيت؟ قال: هذاك بيت آل راجح. آل راجح سبع اخوه، رْجال طيبين ولهم فْعول طيبه. يوم جاهم قال: وين اباعر ابن حِصِن؟ قالوا: هذي اباعر ابن حِصِن على المالحه. المالحة بالتيم. البل العشاير شاربة ومبرّكه ويَصْبِحون تالي البل. وهو يتجشّم العشاير واضرب هكالناقه بالشاكلة يا جْعَرْته، اضرب الاخرى يا جْعَرْته، اضرب الثالثة يا جْعَرْته، ثلاث ابا الثواري عنزي، منهن الحريدا وظيره، اباعر ابن حِصِن. وهو يجيك منحاش وهو يزبن على بيت آل راجح. فوعوا عليه يالرجال. اطْرِحوا الرِجال اطرحوا الرجال. يقول البيت به هكالحريم قالت وحدة منهن: فارقنا وراك –مرة لحدى العيال– والى هكالوحدة يوم فاعت: يارجال ثروكم تخبرون آل راجح قفوكم. جا وزبن على بيت آل راجح يوم اقبل على البيت وهم ينكسون اللي يطردونه وهو يزبن. يوم قَفّوا الرجال وهي تنحر ماقفهم وهي تكوّم هكالكومه على ماقفهم. يا هذولا آل راجح، يا هم ثلاثة اخوه آل راجح. يوم جَوا على خيلهم وهي تسهّل البيت من قِدّام. يامره ابني البيت، وش بَلاك مسهّلته؟ إشارة تقصير حق بهم. يامره ابني البيت. قالت: كان له رجال يبنونه، الرجال اللي يبغون يفضى دخيلهم. قالوا: ابنيه. قالت: ما ابنيه، الرجال اللي بغى يوخذ دخيلهم من بيتهم هم يبنونه والا بكيفهم. هكالوقت طواغيت، قانون عرب. جوا الطاغوت قال: وش حقّكم يال راجح؟ قال: الحق ايقف عند راس الطنب واقرط الدبوس. ان لحق ماقف الخيل فهو زْحِم وجهك وان كان الدبوس قِصَر وهو ما هو بوجهك. يقول وهم ياقفون عند راس الطنب ويشوحون الدبوس يا والله يوم قصر. والله الرجال نْهَجت ويوم نهجت وتدلّي تَجْزِر النياق وتقطّعهن، اللى ذابحٍ ثلاث نياق عن العنز. ذْبَحوهن وكرّموا للعرب، والى هذا العزّام جايهم. قالوا: يارجل اركب الجِمل هذا هات لنا حقنا. يقولونه آل راجح لابن رخيص. يقول واركب الجمل وانحرهم يقول وخوذوا الظهر وحطّوه على الجمل وهاتوه لآل راجح، الظهر حق لهم. يوم جا مسيّان قالوا: توكل على الله يابن رخيص توكل على الله يم فِداعتك نبي نتعشى منه. قال: والله ما انا ناهج. قالوا: تمشي معنا وتاكل من فِداعتك. يقولونه آل راجح معازيبه. وانهج معهم واقلط على ما قيل. والله يوم قِضوا وهم يجونك مروّحين ما لحيةٍ قالت للحيةٍ شين. ويوم جا بالليل قال: والله عاد انتم هالحين لا قصّرتوا وانا خذيت حقي واليوم انا ابسري. قالوا: والله ما تمشي ليا ما يجي الضحى باكر، ليا تغديت وطاب خاطرك وقضيت تمشي، بيان كل يشوفك، يا جا الضحى كود تمَثْناهم الرجال وهم ببيوتهم. والله يوم جا الضحى وتغدوا وهو لك يمشي والله وهو يتمثناهم بالبيوت. يوم تمثناهم قال: اسالكم بالله مسوله –يا مير هكالوقت الرجال ما تقوى تحلف بالله– أسالكم بالله مسوله يامن ذاق يامن خبر من الجذعة شين؟ يا من ذاق لحم عنزي فهو يذكر الله ياشمر؟ قالوا: ياحي ذكر الله. قال ابن غراب من الخرصه: ولّ غلغلك الشر اللي يغلغلك –اللي جابت غلغول هالحين، صْفِقَت عليهم، يعني ان بهم قِصا شويّ– ول غلغلك الشر اللي يغلغلك ألين اني لْغِف لي لي ذراع والله ما ادري هو من جن والا من انس. قال: ثبّته يابن غراب والا تَرَن بظهرك والا نجّحه. قال: تروكم شهود ياشمر. قالوا: وش تشهّدنا عليه جَلي ما انت مذبّحٍ اباعر ابن حِصِن؟ قال: انت ما ذبِحت لك شين، ذْراع عنزي ما يْغَدي هاللي انت اكلت.

يوم جا القيض والى ابن غراب ما نَجّحه وينزلون بقفار بْلَه حوطه يوم نْزلوا بقفار وينقز، يجي مع البل يَدْغَره والى الكحيلة عنده، فرس ابن غراب، وهو يَزِنْدَه والى رْبِتَه توزّغ وراه. اضرب الفرس الى مير يوم ضرب الكحيلة، يقولون تْحَلب، واضربه بالزانة يقول يا مير تطلع من وراه، ليا تجدع هكالمهره. اشْتِل الشلفا اشتْلَه وهي تْعَسِّر. فُوعوا عليه وهو ينحاش وهو ينقز

على الجدار قال: يابن غراب؟ قال: آه. قال: اصخ عن شلفاي وازعَجَه جاي والله ان جا شلفاي شي انه بعمرك، قال: زانتي والله ان تعَرّضه شين مقضاته راسك. وصَخا ابن غراب عن شلفاوه. فكّوا الزانة ويركّبونه ويزيّنونه وهم يزعجونَه لُه. لكن انه قصد رِشيد قصيده شاهد للسالفه لكننا ما نْقَوّمَه. ياخي ما ادري وشو يقول بس انه يقول:

شـيـاهنا ياطلاس غـوالي لحـيلهن ورْخـاص ليـا قـيل الضـيـوف تبِـيت
تاه علي ابن حِـصنِ تيـهـةٍ جـرهديه واسـقـان من مـر الشـرا وطنيت
وذبحت صـبـحـا والحـريدا وضـيـره واشكي لك ياطيـر الفـلاح عْـديت
يا اخـذت حـقي من عِـيّـان زوبع يا جـا يومي مـا وراه حـيـيت
ياوي دخـيلٍ يادخـيل آل راجح مـا يمشي الا الضـحى وبالليل يبـيت

الرجل الوحيد أو الذي ينتمي إلى جماعة ضعيفة سيجد أنه من الصعب عليه أن يدافع عن حقه ضد الغزاة والمعتدين أو حتى أن يحصل على العدالة في المحاكم وعند القضاة. يقول قراد بن عباد:

إذا المرء لم يغـضب له حين يغـضب فـوارس إن قـال اركـبـوا الموت يركـبـوا
ولم يحـبُـه بالنصـر قـوم أعـزّة مـقـاحـيم في الأمـر الذي يُتَـهـيّب
تهـضّـمـه أدنى العـدو ولم يزل وإن كـان عِـضّـا بالظلامـة يُضـرَب

ومثله قول قريط بن أُنيف التميمي من بلعنبر يهجو قومه الذين لم يهبوا معه لاسترداد إبله من الغزاة ويمدح قبيلة مازن الذين استنجدهم فأنجدوه:

لو كنت من مـازنٍ لم تَسـتـبِح إبلي بنو اللقـيطة من ذُهل بن شـيـبـانا
قـومٌ إذا الشـر أبدى ناجـذيه لهم قـامـوا إليـه زرافـات ووحـدانا
لا يسـألون أخـاهم حين يندبهم في النائبـات على مـا قـال برهانا
لكن قـومي وإن كـانوا ذوي حـسب ليـسـوا من الشـر في شيء وإن هانا
يجـزون من ظلم أهل الظلم مـغـفـرة ومن إسـاءة أهل السـوء إحـسـانا
كـأن ربك لم يخلق لخـشـيـتـه سـواهم من جـمـيع الناس إنسـانا

لا يمكن للفرد أن يعيش وحيدا في الصحراء إذ لا توجد مؤسسات تقدم له الأمن والحماية عدا المؤسسة القرابية الممتدة والمتمثلة في جماعة الخمسة. العلاقة التي تربط بين أفراد الخمسة علاقة شبه مقدسة. ولا أدل على قوتها من أنهم مهما بلغت حدة الخلافات فيما بينهم، حتى ولو وصلت إلى درجة القتل، فإنهم لا يسمحون لأحد من خارج الخمسة أن يتعدى عليهم ولا تصل بهم القطيعة إلى درجة التنصل من مسؤولية الحماية المشتركة. والقصة التالية التي نقلتها من بجاد بن لهاب الجش بتصرف (جش ١٩٨٣: ١٢٣-٦) توضح لنا أن ابن العم حتى لو كان يطلب ابن عمه بثأر فإنه لا يتهاون به للآخرين:

حدثت خلافات بين جماعة الجشوش من بني عبدالله من مطير فرقت فيما بينهم وأدت إلى تشتتهم وضعف شوكتهم. وكان السبب في ذلك أن أحد رجالهم ويدعى مبرك قتل ابن عمه ثم نزح لاجئا عند البياشة من قبيلة عتيبة خوفا من رزيق، ابن عم المقتول الذي لم يدّخر جهدا للثأر من ابن عمه. وعندما أراد البياشة أن "يمدّون" لجلب الطعام والميرة وكانت طريقهم تجتاز ديار الجشوش بحثوا لهم عن رفيق لحمايتهم من تعديات الجشوش

فاصطحبوا مبرك ليقوم بدور الخوي. ولما وصلت القافلة إلى ريع بني عبدالله قام مبرك حسب العادات المتبعة ونادى بأعلى صوته ليعلن لكل من يسمع بأن القافلة تحت حمايته وفي خفارته. وكان قريبا من الريع ركب من الغزاة من قبيلة الشلالحة من بني عبدالله بقيادة العقيدين صالح الذهيبي ومحمد الرقابي. فلما سمعوا النداء وعلموا أن القافلة تحت حماية مبرك المطلوب بشخصه من بني عمه ظنوا أن ليس له من يحميه فعزموا على قتله وأخذ الحملة بكل ما فيها لاعتقادهم بأن لا أحد سيطالبهم بهذا الجرم لأن مبرك كان في نظر الجشوش وغيرهم من بني عبدالله شخص هارب من الثأر ومطلوب بذاته للقصاص. ولما وصلت الأخبار إلى جماعة مبرك ثارت ثائرتهم لهذا التعدي الذي اعتبروه استهانة بهم، حتى وإن كان المقتول المخفور مطلوب لهم بدمه، فعزموا على الانتقام من الشلالحة. فقام زريق الذي كان بالأمس يبحث عن مبرك لقتله ثأرا لابن عمه فوحد بين جماعته ورص صفوفهم وحرضهم على الثأر من الشلالحة وألا يتركوا دم مبرك يذهب هدرا. وكان أول ما فعلوه هو إنقاذ وجه ابن عمهم المقتول بأن فاوضوا الشلالحة على استرجاع القافلة المنهوبة وردها إلى البياشة. وبعد مدة ثوّر غزو كبير من بني عبدالله يضم أخلاطا منهم بقيادة العديد من عقدائهم المشهورين. وكان من ضمن الغزاة زريق الجشي وكذلك العقيد صالح الذهيبي الذي قتل مبرك الجشي. فلما رآه زريق اخترق الصفوف وتقدم إليه وقتله أمام الجموع ثأرا بابن عمه مبرك. وبعد مدة ظفر زريق بشخص يدعى زرنيخ وإبنه وكانا ضمن غزو الشلالحة الذين قتلوا مبرك ونهبوا القافلة فقتلهما. وبعد فترة أقيم حفل كبير في مضارب بني عزيز ضم أخلاط من بني عبدالله وحضر إلى الحفل زريق الجشي متسلحا بخنجره. وبدأ الحفل بشعر القلطة وكان أحد الشعراء قد شاهد زريق متسلحا بخنجر مسنونة ورأى الشر في عينيه فقال الشاعر مرتجلا:

زْريق يدرعها المسَنّ واشوف عينه بالقتال

فأجابه أحد شعراء الشلالحة:

كلٍّ يجهّز له كفن ما ادري تجي بايّات حال

وكان من ضمن الحضور في الحفل محمد الرقابي الذي سبق القول أنه من ضمن الغزو الذين قتلوا مبرك وخفروا ذمته ونهبوا القافلة التي كانت في وجهه، فلما رآه زريق أرداه بطعنة قاتلة من خنجره. وبعد مدة ظفر الشلالحة برجل من الجشوش فقتلوه ويسمى حميد بن فواز الجشّي. عند هذا الحد قرر وجهاء بني عبدالله التدخل ووضع نهاية لهذه المشكلة عن طريق الصلح ودفع الديات. بعد هذه الأحداث قرر الجشوش الرحيل من الحجاز إلى نجد. وبعدما وصلوا نجد نقل لهم الرواة قصيدة لأحد شعراء الشلالحة يرثي فيها جماعته الذين قتلهم زريق ويذكر الجشوش برجلهم حميد بن فواز الذي قتله الشلالحة. تقول القصيدة:

ياراكبٍ حرٍّ من الشام مجناه يلفي زريق من الدفينه وغادي
يالعين لا تبكين حيٍّ فديناه بحميد حامي مقرعات التوادي
الجش حنا من دياره طردناه ونخيلهم ضاعت نهار الجداد

فأجابه هندي بن شتيان الجشي:

ياراكبٍ حمرا من الهجن معفاه تبهج فواد اللي يمسّ الشدادِ
حمرا تشيل النيّ والكور تزهاه ومْخطّرٍ عنها الجمل بالهدادِ

مخطر عنها الجمل: يطرد عنها الجمل حتى لا يضربها وتلقح فتصبح غير صالحة للركوب والأسفار.

ياللي تقول حميد حنا فديناه وزدنا وحطّينا لراسه وساد
ياللي تريد الحق حنا لقيناه مبدا الفرج تراه ضرب الهنادي

وهذه حكاية أخرى على نفس المنوال رواها لي غالب الجنفاوي وخلف الجنفاوي:

هذي سالفةٍ صارت قبل حكم الرشيد، لها هالحين خمس جدود منّا هالحين. صارت على واحدٍ من عمّانا الاولين اسمه عقيل بن علي الجنفاوي وابن عمه فرحان، اثنينهم من الجَنْفا من الجحيش من الاسلم. صار بينهم هوشه، عقيل وبني عمه، الشيطان حريص والاسباب تْحَصِل. عقيل ضرب حديهم واطلبوه، لحْقوه لأنهم متكاثرين روحهم ومتزاودين روحهم، ثلاثةٍ هم، عيال اثنين وابوهم، يبون يتثارون للضربه. هو رجلٍ بْواردي وْوَلَدٍ دون روحُه، شَرْوى هالوجيه، هو معُه بارود فتيل. قال: يَمّكُم يارجاجيل، انا لا انا مْقَضّبكم نفسي لكن ترن اذبحكم دون عمري. قالوا: مير انطح عن روحك، حنا وصلناك. واضرب واحد واذبحه واضرب الثاني والى هو كاسرٍ رجله واضرب الثالث يا هو مْصَوّبُه. عَثَر الثلاثه كلهم. وهو يمرّ العرب قال: شوفوا فلان وعياله جونَن بهكالمحل وبَلون دون عمري لكن روحوا الحي انقذوه والميت ادفنوه. يقول يا مير عقيل خواله الغْيِثه وجلَى مع خواله، خالُه دْريعان اذان الذيب. حَموه خوالُه. بعد ذلك حجّوا وحج معهم، انت ياعقيل. حجّوا وحج معهم. وْدري فرحان انُّه حجاج. قال انا ابَتْبَعهم اغَدي يتَهيّا لي بُه فرصه، لأن الحجيج يصير بهم غفله وبعضهم يشت عن بعض، غدي يتهيّا لي به فرصه. يوم انهم نْزَلوا بمكة ونْزَلوا بالعدل هكالليلة شيف فرحان. يوم شيف وتعالوا به الغْيِثَة يقولون انهم اجتمَعَوا الغيثة وصَكّوا على عقيل، يقولون انهم خمس وعشرين. قالوا جماعة فرحان: يافرحان عَقيل دري بك واستحَذَر والغيثة نْقَلَوا حذرهم وان جيتهم ذْبَحوك والحَقوك اخوك، لكن حج، اجعل تاليه حجّةٍ لِلّه، اغدي الله سبحانُه وتعالى يجلي هالامر. وحَج، عاد العقايد الله اللي يَعْلَم بَه، لكن حج. بعد ما حج ياطويل العمر وجَوا من عرفه الى هو مْصَخّن، انت يافرحان. ودَرْيَوا انه مصخّن. يوم انّه قضى حجهم ووادَعَوا مشَوا. هم على جيش هكالوقت ووادَعَوا ومشوا. يوم مشوا وعَشَّوا على بركة ركْبه. اثري الصخنة اللي جتُه ثَرْيَه جْدري، والجدري هكالوقت يْخَرّع الناس، يرحلون ويخَلّون رجّالهم على المراح. يوم اصبَحَوا يا هو نافْر ومجْدور، وهم يركضون خْوَياه، عاد خوياه انا ما ادري من هم، وهم يركضون خوياه ويعنّون عليه هكالعنّه. قالوا: والله يافرحان ما لنا بك الحيله، كلنا غزلانٍ والله ما طبِّنا الجدري واليوم ربنا وربك الله، اللي ما جاوه الجدري يسمونه غزال. وهم يركبون ويخلُّونُه، يعنّون عليه هكالعنّة وهم يركبون ويخلونه. وهكاليوم، يقولون انه يوم ما به مغَدّى، يوم جا العصر وهم يحطّونُه مغدّىً مْعَشّى. يا مير عقيل ولد خفيف وولدٍ بواردي وطيّب ومحاذر. الغيثة دريَوا ان فرحان مخلّنٍ بالمراح. يوم انه ياطويل العمر روّح الجيش وعقّلوه وهم يجلسون يجيبون عشاهم ويوم جابوا عشاهم وصكَّوا على عشاهم يتَعَشّون قالوا: ياعقيل، قال: نعم، قالوا: عسى الله يْبَدّي بالسيّات هَلَه تموت الحيايا وسمّه بروسَه ابشر ان فرحان خلّي بالمراح. هم يحسْبون فرحان يبي يفرح الى دري ان فرحان مجدور. قال: وش بلاوه؟ قالوا: الصخنة اللي جانا خْبَرَه انُّه مصخّن صار جدري ويوم تبيّن انه جدري مشَوا خوياه وخلّوه، عنَّوا عليه له عنّةٍ وخلوه. يقول يامير بيدُه لقمته يبي ياكله يقول وهو يجدعه بالماعون وهو يثور. يقول وهو يمسّ على ذلوله وهو يخَطف القربه، يقول المزهبة اللي بَه الزاد خلّيتَه عندهم ما اخذتَه، استحيت منهم. يقول يا مير خالُه دريعان، اذان الذيب، بْجيبُه. قال: وين تبي؟ يقولون انه يقول انا ذلّيت ان خالي يْحلَف عَلَيّ وانا جازمٍ اني امشي وابَزِعْلُه ما ابي اقَطّع دينه، ابيه يزْعَل ويتركن ولا اقطّع دينه، علشان ما يحلَف. قال: ابي يم ابن عمي. قال: ياعل تْعَمى عينك انت وابن عمك، ابن عمك هاللي المسلمين كلٍّ متقَلّدٍ كْفنُه ويدوّر ما عند الله وهو مطلبَك من حايل وضواحْيَه يدوّر دم رْقبتك،

وهالحين تبي تنكس له. قال: خلّن من علومك ياخالي الله يهديك تْشوف ان بني عمك كلهم صاكّين عليك ولا بهم الا العافيه والا انا ما لي مع سيّرة شمر كلّه، حجيج شمر هالسنه، الا ابن عم واحد مْخَلّن بالمراح على سهلة ركبه، ابي الى منّك جيتن انت وربعك هاللي صاكّين عليك تبونَن ينطحكم هذا كبر قناتُه. قال: طِسّ الله لا يَعَقلك، الله يجعل سمينكم عند ضعيفكم، عسى الهاملة تلحق الزامله. زعل خاله. يقول وهو يركب ذلوله وهو يمشي. يقول وسَرّاي وهم بالشتا، وسرّاي، وسرّاي، وسرّاي ليا ما جا حروة معشّاهم. يقول يا مير ركبة كثير شْجَرَه. يقول ويَكَهّب يدوّر العِنّة، يقول ويكهّب ويستدير على مرح الحجاج. يوم جا حول السحر يقول يا والله هذي العنه. يقول وهو يطقّ راس المطيه وينوّخ. يقول المجدور ما نام، وجعان جيعان بردان زملان، بحالة ما يعلمه الا الله، حالة ما هي حلوه، والموت اقرب له من الحياة. يقول يوم بْرِكَت الذلول ونْحَطَت الذلول، الذلول وانْيه، يقول درْي ان ما ناكس عليه الا عقيل. يقول قال: عقيل؟ يقول قال: نعم. قال: اخس الله يخسّك ما ابطا فْرجَك. قال: يافرحان والله اللي يرد الشارد على الطارد اني ما دريت بك الا عقب ما غابت الشمس. يقول وهو يدَنِّق عليه يقول وهو يحبُّه وهو يجيب غمر هكالحطب وهو يحَفر له هكالحفرة وهو يجدعُه بالحفرة وهو يشب النار، وهو يقَرّبُه وهو يصَخّنُه وهو يفضفضُه النار وهو يصخّنُه وهو يلَهّزُه عاد باللي هو لهَّزُه بُه. يوم انُّه دفي ولان وهذا وهو ينكس وهو يجدع عن الذلول وهو يرِدّ راسَه ويعَقْد رسَنَه بذنبَه وهو يذبَحَه. يوم ذْبَحَه ياطويل العمر وهو يدسّ يدُه مع مذبَحَه وهو يظْهر قلبَه وهو يجدعُه بالنار وهو يشلْهبه وهو يضلهبُه وهو يقطع ويعطيه. وهو يعشّيه. يوم عشّاوه وكلّفُه وهبهب ريحُه وهو يفسّر ذرعانه وهو يفَلّح لك بالذلول، وهو يقعد لك يجزْرَه. يوم طْلَعَت الشمس يا هو قاضي منَه وجدّع لحَمَه على هكالشجره وهو يجيب الجلد وهو يحطّه على الوبر وصفحة يحطَّه لُه فراش وصفحة يحطه له غطا، للمجدور، وهو يحاظيه، يقوت عليه هاللحم. ويا منّه زيّنُه وسنّعُه وغدّاوه ودهّنُه وهبهب ريحه يقول خلاوه شطّرُه شوين يقول وخَذَى بارودُه ونهج. وما لقى جابُه. جرذي، قنفذ، ضب، يقولون ليا الداب، والله شيبانننا يقولون ليا الداب انه ذبحه وقطع راسه وجدع مصيرُه بالنار وعطاوه للمجدور ياكلُه. ما لقى من هالخشاش جابه واوكلْهُ ايّاوه. يقول يوم تم له شهرين يقول يا هو بريان، بريان، مْقَشْقِش، لكن الجدري اللي ضاربُه هندري ومسلْم. يقول ياهو قاضي لحم الذلول، ما عندهم غيره، قوتهم لحم هالذلول، يقوته عليه على شوين شوين. ولا من عيشة واكل يسوق الحيا بُه ونشاط. ياهو قاضي لحم الذلول ياطويل العمر، يقول وهو، قال: يافرحان ياخوي حنا القيض اقبل علينا والزهاب قضى وانت انشا الله انك بريت لكن نبي ما حدّ تالي هالبراد نبي نروّح، نتدرّج، نتسهّل لاهلنا. قال: توكّل على الله. يقول وهو ياخذ وِتْر الشداد يحطُّه عاروك، سنع عدل، فجِّة وحده، ويحط له حبال علايق يقول وهو ياخذُه وهو يشيلُه. يا منّهم جو الارض الوَعر أو اللي بَه شوك أو اللي حَثْرة شوين حطُّه بالعروك، وهمّن اشاله قيسة ما يقوى له. وهو ناشٍّ من الصخنه ولا من حال ولا هوب ثقيل. يقول وهذاك يعاونه بقدّ قدرتُه بالارض الليان واللي هو يقوى معه. يقول الثمرة انهم يما جَوا الشعبه. يوم جَوا الشعبة يا هذولا شمر ويجون لهم واحد يعرفونه من شمر، قيل اغديه من الغازي من العليّان. يا والله يْعَرفهم ويعرف اهلهم. قال: والله مير اهلكم طيبين لكن ميّسين منكم، يقولون المجدور مات واللي نكس عليه غزال ما جاوه الجدري وجْدر ومات عند رفيقه. اما انت هلك ياعقيل هم هذولا ببزاخه –بزاخة هي هذي بشمال الشبيكة– واما انت هلك يافرحان بالحَضَن أو هم بالنفود بَعَد من قبَل الحضن، بخشم اجا من مْغَرّب. يوم اصبحوا وهو يْزَمّلهم هكالذلول وهم يترادفونه وهم يجونك. يما يجون اهلهم عاد ويرجّعون الذلول على راعْيَه. يوم انهم اندْفَعَوا

قال فرحان: ياعقيل؟ قال: نعم. قال: تراك ما تجي هَلَك، قال: الليلة نبي نروّح على هلي –لأن اهل عقيل دون اهل فرحان، ببزاخة، بزاخة ما هي بعيد– ويا منّنا انشا الله جينا اهلنا وهذا ننهج يم هلك. قال: والله ما تجيهم الا حنا مْسَلّمين على ابوي وعلى حسناوه وسايتُه. قال: تم، لا بالله الا توكل على الله. وهكاالليلة ويوم جا من باكر ياهم طالعين عليهم. يا هذا البشير جايّهم: ابشروا بفرحان وابشروا بعقيل وابشروا بهم كلهم. وينطحونهم وسلامايْه واكرام وهذا، وهكاليوم من ايام العيد هكاليوم. يوم انه ياطويل العمر جا الصبح وهو يلوذ عليهم الشايب قال: ياعقيل؟ قال: يالبّيه. قال: ياعقيل شف هالذلول تراه لك بدَل ذلولك اركبه وانحر اهلك، وهالحين ياولدي لو ان فرحان تْبَعَك وذبَحَك ان كان انت مُتّ وفرحان مات ولحقت الهاملة الزامله، لكن الحمد لِلّه، انتم كلكم عيالي والشيطان ما غاب عن احد، والحي عوضٍ للميت، لكن ياولدي ترى الله عطاك وْلِدي فلان –اللي هو ذبح– تراوه حدْر الفراش، وعْرِجْتي تران مخلّيَه لك، وهالحين انهدّ على كفيلك، قلّط كفيلك، وانا تَرَن دافنٍ لك. قال: والله ياعمي تقول وتفعل لكن كان انت عطيتن فهو بْمِدّاوه لأن الامور يا صار يعني انُّه عطَنٍ واسكات تنبعث لو ما هو علينا، لو ما هو علي انا وايّاك، ويا صار انه عَطَنٍ مطْلَق وبْمِدّى تموت عنقا على جْراه. قال: تَمّ وبْمِدّى واللي يعسْرَك تراك بالف حل. والله وهم يتكافلون. وليا الان هالحين عصبة عقيل وعصبة فرحان صاروا حْضاة من دون اللي اقرب منهم. عقيل قايل له ابيات يوم هو ينكس، يوم هم بالعنّه، يوم هو يتصَيّد من الخشاش ويشوي له، يقول:

ياراكب اللي ينجبونه من التيه	حمرا ردومٍ تَوّ ما شَقّ نابَه
عامين مع ذروة طياحٍ مْعَفّيه	والى حْضَرَت عازاتنا جاك ما بَه
عَلْيَه صبيٍّ يدّي العلم راعيه	قَرْمٍ يْوَدّى الحاجة اللي عنى بَه
باغيه ياخذ لي سلامٍ ويدّيه	لربعي مْطَوّعة العدو بالحرابه
والى نْشَدَوا عنّي يقولون وش فيه	ابد العلوم اللي معك لا تهابَه
قل له قعد ما هْنات حَيٍّ حواليه	بْدَوٍّ من البيدا تقادَح سرابه
بيسهْلةٍ ما عنده اللي يحاكيه	كود الطيور الطايره والذيابه
يتنى ابن عمه لين ربه يعافيه	والا يحط بْحِفْرةٍ من تْرابَه
قالوا لي الحسّاد ليّاك تطريه	ولا طعت هرج اللي حكى بالسبابه
والله دينٍ يابن عمي ما اخلّيه	ولا طِعت هرجٍ علَيّ به عتابه
أخاف من هرجٍ يجيبه ويدّيه	راعى النقيلي والحَسَد سَدّ بابه
أصبر على ما صاب نفسي وامضّيه	واطلب ياعلّه خيرةٍ والهْدَى بَه

وصارت خيره لِلّه الحمد من هكالحين الى هكاليوم ليا اليوم.

المسؤولية الجماعية المتمثلة في نظام الخمسة وما يترتب عليه من ممانعة ومدافعة وحماية مشتركة هي الركيزة التي يرتكز عليها القانون العرفي، فهي تمثل قوة الحماية وقوة الردع في آن واحد. جماعة الخمسة ملزمون بحماية بعضهم البعض والدفاع عن مصالحهم المشتركة بكل ما لديهم من قوة سواء في ساحة المعركة أو في المحاكم وفق مبدأ "أنصر أخاك ظالما أو مظلوما"، وإلا فقدوا هيبتهم في عيون الآخرين وأصبحوا لقمة سائغة لا يحسب لها أي حساب. إذا لم تهب المجموعة للدفاع عن أفرادها ونصرتهم ومساندتهم وحماية حقوقهم فإن ذلك قد يفسر على أنها أضعف من أن تقدر على ذلك. أي اعتداء يوجه إلى أي فرد من أفراد الخمسة

وأي استخفاف بقدره أو إهانة تلحق به هو تعد على المجموع. المسؤولية المشتركة في المجتمع القبلي بين أفراد مجموعة الخمسة يعني أنهم يشتركون في المغانم والمغارم، ورصيد المجموعة من القوة والعزة والمنعة والشرف يزيد وينقص بحسب أفعال أفرادها وإنجازاتهم وتصرفاتهم. لذلك فإن الرجل الذي يعجز عن القيام بما يجب عليه يهب معه رجال عشيرته وأبناء عمه ليشدوا عضده ويؤازروه ليتمكن من تنفيذ ما التزم به لأن العار الذي يطاله سوف يطالهم جميعهم ولن يسلم منه أحد كما أن أي مفخرة يحوزها أحد أفراد الخمسة تصبح مصدر فخر للجميع. بحكم نظام المسؤولية الجماعية فإن أي عمل مشين يقوم به أحد أفراد المجموعة ينعكس على المجموعة بكاملها والأذى المترتب عليه يطالهم جميعا. ومن هنا مثلا حرص والد ذعار ابن نمش ابن دعسان الديحاني على قتل ولده الذي غدر بخويه العتيبي وكذلك الحال بالنسبة لمغلث ابن عنيزان المطيري الذي قتله أخوه لنفس السبب في الحكايتين اللتين أوردناهما في الفصل السابق. فلو لم يفعلا ذلك لطال جماعتهم سواد تلك الأفعال الشنيعة ولعاشوا كلهم بقية حياتهم في الخزي والعار. البياض أو السواد الذي ينال الشخص والعيب الذي يلصق به ينعكس أيضا على عشيرته الأقربين ويصمهم جميعا بدون استثناء وفق مبدأ: في الجريرة تشترك العشيرة. وفي مقابل الحق الذي للفرد على الخمسة، فإن عليه واجبات تجاهها. من هذه الواجبات أن لا يسيئ إلى سمعتها بين القبائل ولا يحمّلها ما لا تطيق. الذي يريد أن يحتفظ بعضوية خمسته ويتمتع بحمايتها عليه المحافظة على سمعتها وأن يساهم في ترسيخ قوتها ودعم رصيدها المعنوي والأخلاقي من خلال مراعاة الأعراف والتقاليد القبلية، وعليه أن يحترم رأيها الجماعي وإرادتها الجماعية، وهذا ما عبر عنه دريد بن الصمة في قوله:

ومـــا أنا إلا من غـــزيّة إن غـــوت غـــويت وإن ترشـــد غـــزية أرشـــد

خوف الرجل من أن خمسة خصمه سوف يقفون مع قريبهم ضده ويتقاضون منه بالقوة إن لم يخضع لصوت العقل وحكم القانون هو ما يدفع به إلى مراعاة الأعراف وتحكيم العقل وسلوك الطرق السلمية واللجوء إلى القانون العرفي لحل خلافاته مع الآخرين، خصوصا الأقربين، إضافة إلى خوفه من الضغط الذي يمكن أن تمارسه خمسته عليه وربما تخليها عنه لو كان شريرا نزق الطباع شرس الأخلاق. إذا ما تحول الفرد إلى مصدر ضعف للمجموعة وضرر يسيئ إلى سمعتها من خلال تصرفاته اللامسؤولة وسلوكه المشاكس واستهانته بالقيم القبلية مما يجر عليها الويلات ويعرضها لاعتداءات الآخرين أو احتقارهم فإن الجماعة تخلعه، كما كانوا يفعلون في الجاهلية، وتعلن عدم مسؤوليتها عما يجره من جنايات، أو كما يقولون: **تْغَرّ عليه الجناة** أو **تْقَطّع عنه العواني**، ويسمّى **مْجَنّى** أو **مْقَطّع** أو **مِثْرِب** أو **مْشَمّس**. وقد تتعدّى العقوبة الخلع إلى القتل كما رأينا في بعض الحكايات التي سبق إيرادها.

وقد يحدث أن تتعدد جرائر أحد أفراد القبيلة حتى تجد نفسها عاجزة عن نصرته، لأن

> في هذا تكليفا لها لا تطيقه، وعبئا ثقيلا عليها تنوء به، وتهديدا دائما لسلامتها، وإراقة لدماء أبنائها بدون مبرر، فتضطر إلى التخلص من هذا الفرد، مفضلة أن تضحي بفرد واحد على أن تضحي بجماعة من أفرادها، ملقية عليه تبعات جرائمه، يتحملها هو وحده، فتخلعه.
>
> وقد يحدث أن يسوء سلوك أحد أفراد القبيلة من الناحية الخلقية، حتى يصبح وجوده بينها وصمة في جبينها، وسبة في مجدها وشرفها، وحطا من قدرها بين القبائل، فترى أنها أمام عضو فاسد لا يرجى إصلاحه، ضرره أكثر من نفعه، فتتبرأ من نسبته إليها، حرصا على سمعتها، وإبقاء على كرامة المجموع من أن يسيئ إليه فرد، فتخلعه (خليف ١٩٦٦: ٩٤).

سبق وأن أشرنا إلى تداخل مؤسسات المجتمع القبلي ومكوناته الثقافية. ومن مظاهر هذا التداخل دمج القانوني مع الاجتماعي مع السياسي مع الاقتصادي. الخمسة وحدة اجتماعية ذات صبغة سياسية قانونية، ومنها أيضا يتألف النجع الذي يشكل وحدة اقتصادية يتحرك أفرادها في الصحراء كمجموعة واحدة طلبا للماء والمرعى ويتشاركون في رعي أذوادهم والدفاع عنها. ما يجمع أفراد الخمسة كوحدة اقتصادية قانونية دفاعية هو انحدارهم من جدهم الخامس الذي يجمعهم في عصبة واحدة. وتتجلى هذه الوحدة العصبية في المسؤولية الجماعية وتتخذ عدة مظاهر مثل تحجير بنت العم ومثل الثأر ومثل الجلاء في حالة القتل والاشتراك في دفع الدية.

غياب السلطة المركزية والمؤسسات الرسمية في المجتمع القبلي ينمي نزعة الصراع وحدة التنافس، وهذا مما يوفر الفرصة والمجال للأفذاذ من الرجال ليثبتوا جدارتهم. المجتمع القبلي ميدان مفتوح أمام الرجل القدير للصعود إلى قمة الهرم الاجتماعي وربما انتزاع مركز رئاسة القبيلة وزعامتها، خصوصا إذا كانت خمسته تتألف من عصبة قوية وكثيرة العدد تقف معه وتسانده. والأمثلة على ذلك كثيرة، وقد ضربنا مثلا على ذلك شليويح ابن ماعز العطاوي في فصل سابق. ومن أهم الميادين المتاحة أمام البدوي للمنافسة واستعراض القوة والشجاعة هما ساحة المعركة ومحاكم القضاء العرفي. هناك ربط مجازي بين ساحة المعركة ومحاكم القضاء، وقد سبق التلميح لذلك عند الحديث عن شعر القلطة. ميدان المعركة يتيح الفرصة لاستعراض القوة والشجاعة بينما المحاكم تتيح الفرصة لاستعراض البلاغة والفصاحة ورباطة الجأش وحضور الحجة وقوة العارضة والقدرة على الإقناع. هذه كلها خصال تدل على قوة الشخصية وعلى توفر المؤهلات القيادية. من مظاهر القوة أن يصر الرجل على حماية حقوقه وعدم التهاون بها وأن لا يسمح لأي كان بالتعدي عليها ومخالفتها. أن ترضخ لخصمك وتستسلم له، سواء في ساحة المعركة أو في محاكم القضاء، يعد دليلا على الضعف والجبن والخور.

ولاستعراض قوته فإن الرجل القوى إذا كان متأكدا من سلامة موقفه وأن الحق إلى جانبه لا يطالب بحقه عند القضاة بل يضع نفسه فوق القانون وينتزع حقه بحد

سيفه، أو كما يقولون **بالعوج** (وتعني الأعوج، أي غير طريق الحق، وضدَّه عندهم **القِدا**") كما جاء في قصيدة سبق أن أوردناها أعلاه لماجد ابن فضل ابن رمال والتي جاء فيها قوله: **انخ الدويله يدِرْكونَه بالعوج // يا حنّثَوا الحق ما يمشى به**. الخضوع للقانون يعني إما أنك لا تملك القوة لانتزاع حقك بيدك أو، على الجانب الآخر، أن خصمك قادر على أن يرغمك على التقاضي مما يعني أنه ند لك أو ربما أقوى منك، وهذا ينطبق خصوصا في قضايا الثأر ومسائل الوجه. فقد رأينا في حكاية أوردناها في الفصل السابق أن الشيخ عواد ابن فلاح الذويبي يرفض أن يقاضي شيخا أقل منه منزلة هو نافل ابن غميض شيخ البيضان من حرب في إبل نهبها نافل وكانت في وجه عواد بل أرغمه على أدائها بالقوة. كما رأينا كيف أن منوّخ ابن قازي الربوض وبني عمه رفضوا التقاضي عند ابن رمال بل أرادوا أن يقتصوا بأنفسهم من علوم الدريبسي حينما قطّع وجه منوّخ وتعدى على دخيله هطيلان.

ومن أهم مظاهر استعراض القوة عند البدو **الدخاله والكفاله**، إذ لا يُدخل المظلوم أو المطرود إلا من يستطيع حمايته من الظالم أو الطارد ولا يكفل إلا من يجد في نفسه القوة لإرغام مكفوله على الوفاء بما التزم به أو أن يقوم مقامه. وقد تصل المباهاة عند البعض في استعراض القوة إلى حد المبالغة. فهذا فنيخ ابا الميخ أحد شيوخ عبده من شمر الذي اشتهر باسم سيفه عْصيل كان لا يجير إلا من ارتكب **العق** (من العقوق وهو خلاف الحق) لأنه كان يرى أنه لا فخر في إجارة من يطلب الحق لأن من يطلب الحق سوف يجد من يجيره. ولا أظن أن المقصود بإيواء العاق أن فنيخ يؤيد هذا السلوك وإنما هو يعلن قدرته على حل المشاكل المستعصية والتوسط فيها ودفع ما قد يستوجبه ذلك من غرامات، وإلا لأصبح كلام فنيخ تحديا سافرا لقيم الصحراء التي يفترض فيه، كشيخ قبيلة يحسب لها ألف حساب، أن ينصّب نفسه قيّما عليها. والشخص المعتد بنفسه لا يقبل أن يكون دخيلا ولا مكفولا لأن في ذلك اعترافا منه بأن الشخص الذي أدخله أو كفله أقوى منه. ولذلك يتردد البدوي في طلب **الدخاله والكفاله** ولا يلجأ لذلك إلا مضطرا لأنه في طلبه هذا يعلي من قدر كفيله أو مُدخِله على حسابه هو وعلى حساب وزنه وقيمته الاجتماعية، وكأنك تأخذ من الوزن الاجتماعي للمكفول لتضيفه إلى الوزن الاجتماعي للكفيل.

ومع أن استعراض القوة من أهم القيم التي تؤكد عليها ثقافة الصحراء إلا أن ذلك لا ينبغي أن يتخذ طابع البغي والظلم وإنما البرهنة على العزة والمنعة والسطوة والقوة الرادعة التي تقف في وجه التعديات السافرة. استعراض القوة لا يعني استعمال العنف الغاشم وانعدام الشفقة وانتزاع الرحمة من القلوب. لكن هذه الفضائل تُمنح كمظهر اخر من مظاهر استعراض القوة وكوسيلة أخرى من وسائل دعم رصيد الإنسان من المفاخر والنبل والشرف. بذل هذه الفضائل يلزمه فائض من

القوة مثلما أن الكرم يحتاج إلى فائض من الثروة. فبدون فائض القوة لا يستطيع المرء ممارسة المروءة والشهامة والنخوة وغيرها من مكارم الأخلاق. الهدف من ممارسة هذه الفضائل هو نفس الهدف من ممارسة الكرم والشجاعة، تعزيز مكانة الشخص الاجتماعية ودعم رصيده من الشرف، فهي لا تُبذل مجانا أو مخافة من الآخرين، فهناك فرق مثلا بين أن تبذل مالك في سبيل الكرم وبين أن يؤخذ منك غصبا. وكما سبق وأن ألمحنا فأن قيم الثقافة البدوية قيم دنيوية ودوافعها دوافع نفعية براغماتيكية. البدوي مثلا لا يبذل ماله صدقة لوجه الله بل ليقال عنه أنه كريم مما ينمي رصيده من النبل والجاه والسمعة الطيبة. ولهذا يميلون نحو المباهاة والمفاخرة والمنافرة، فهم يعرفون جيدا أهمية الدعاية والإعلان. لذلك لا يدخرون وسعا في استعراض القوة، مثلما يستعرضون غيرها من الصفات التي تزيد من رصيد النبل والشرف كالكرم والمروءة والشهامة والصعود إلى مراتب السؤدد والرئاسة.

وتلعب الحسابات السياسية دورا فعالا في تفسير وتطبيق القانون العرفي. يمكن لدعوى قضائية أن تتطور لتتحول إلى استعراض للقوة واختبار لقوة الشكيمة والعزيمة والإصرار. من يكسب مثل هذه القضايا هو من يمتلك البراعة والدهاء ليناور بمهارة ويستثمر الغموض في بنود القانون العرفي ويسخرها لصالحه. وغالبية من يكتبون عن البدو لا يدركون الدور الذي تلعبه الفصاحة وقوة البيان والمناورات البارعة في التأثير على الرأي العام وتوجيهه في اتجاهات محددة نحو تمثل الأعراف البدوية وفهم قيم الصحراء وتفسيرها وتكييفها وتحوير معانيها لخدمة مصالح معينة وتحقيق مآرب محددة. القوة الكافية والوزن والتأثير تعطي الرجل الحق ليفسر القانون ويسخره لما فيه مصلحته أو الأخذ به أو تجاهله (Kennet 1925: 78; Murray 1935: 201). الذهاب إلى المحاكم خيار يمكن اللجوء إليه، ولكن يمكن بدلا من ذلك اللجوء إلى القوة لمن يجد في نفسه القدرة على ذلك، خصوصا مع الغرباء والناس البعيدين. والطرف الأضعف بطبيعة الحال هو الطرف الأكثر استعداد لتبني الخيار السلمي وحل الخلافات قضائيا، أو إذا كان الخصوم متساوون في القوة ولن يستفيد أي منهم في استعراضه لقوته، أو إذا كانوا ينتمون إلى نفس الخمسة أو العشيرة ورأوا أن في اللجوء إلى العنف لحل خلافاتهم ما يشتت شملهم ويضعف قوتهم ويخضد شوكتهم فليجأون للمرافعات القضائية والحلول السلمية حفاظا على وحدة الجماعة وتماسكها. اعتبارات المصلحة وحسابات المنفعة المرجوة هي التي تحدد ما إذا كان الشخص سيلجأ للقوة أو للمحاكم، وما إذا كان، في حال عرض القضية على المحاكم، سيتخذ موقفا صارما وقاسيا أو لينا متسامحا ينحو نحو الصلح والتسوية السلمية. هذا كله يخضع للصورة التي يريد إيصالها للآخرين عن نفسه وعن شخصيته وطبيعته في ذلك الموقف. ويشرح العبادي الدوافع إلى سلوك

طريق الصلح والتسامح كما يلي:

> الصلح وسيلة استكشاف واستشفاف لمعادن الناس، حيث يعرفون المتسامح من غيره، والمعدن الطيب من الخبيث . . . والصلح وسيلة لبناء الشخصية والسمعة، حيث يطرق باب المتضرر نخبة رسمية وشعبية، يرجونه، ويتوسلون إليه، ويقنعونه، ويجادلونه، ويتوصلون معه إلى حل. ولا بد أن يقوم هو بإظهار ما هو عليه من تسامح وشهامة، وبالتالي قبول مبدأ الصلح، ومن ثم الموافقة على إجراء الصلح، وبعدها قد يتوج شهامته هذه بالعفو والصفح والتسامح. وإذا عرفنا أن السمعة والشهرة من أهم ما يرغبه ويحبه أبناء العشائر، فإن لذلك أثر كبير في إبداء التنازل الكريم أمام الجاهة –خاصة إذا كانت على مستوى رفيع رسميا وشعبيا. وهناك أمر اخر يكمن في فلسفة الصلح، وذلك هو "التسامح المتبادل". . . فلا بد لك أن تكظم الغيظ، وتغضب نفسك إذا ما أردت أن ترضي الناس وتستميل قلوبهم، وتحصل على ودهم . . . والعشيرة إذا ما صفحت فإنها تسجل سابقة ليس لدى العشيرة الخصم فحسب، بل ولدى أية عشيرة أخرى قد تحدث بينها وبين المتسامحة مشكلة مستقبلا، أو مشكلة معلقة. كما أن التشدد الذي لا ينتهي بالتسامح والعفو يسجّل عشائريا على الطرف المتشدد وقد يدفع ثمنه في أية قضية قد يرتكبها فيما بعد مع الآخرين. فهو إن تكرّم أو تصلّب لا بد أن يجني الثمن مستقبلا عندما يكون هو الخصم المطرود (عبادي ١٩٨٦: ٨١–٢).

ونظرا لتداخل القانوني والسياسي في المجتمعات القبلية فإن النزاعات التي يمكن أن تنشأ في هذه المجتمعات لا تنحصر فقط في التعديات الفردية المحدودة وإنما قد تتجاوز ذلك إلى قضايا عامة وحقوق تطال كل أفراد الخمسة أو العشيرة، مثل ملكية الأرض أو حق الأولوية في استخدام مياه الآبار أو النزاع على منصب مشيخة فرع من فروع القبيلة أو نصيب هذا العقيد أو ذاك من كسب الغزاة أو من إيرادات القبيلة كالخاوة أو الصرة. إذا استعصى حل مثل هذه القضايا المعقدة فإن الطرف الأضعف يضطر للجلاء بجميع أفراده إلى قبيلة أخرى، ولكن في هذه الحالة لا يلجأون إلى قبيلة محايدة أو صديقة بانتظار حل المشكلة وإنما إلى قبيلة معادية يستقوون بها لشن غارات على بني عمهم ونهب أموالهم. والقبيلة المضيفة في هذه الحالة ترحب باللاجئين كقوة إضافية وتستفيد من خبرتهم وما يمتلكونه من معلومات عن قبيلتهم ومسالك ديرتهم ومواردها ومفاليها. وإذا تكررت هذه الغارات وأثبتت فاعليتها فإنها ربما تشكل ضغطا على الفئة الباغية التي تسعى بدورها لاستمالة الفئة المتظلمة لتعود إلى ديارها. في تعليقه على بيت عيادة ابن منيس

عيّى عبيكه لحيتي ما استشاره ما طاع شوري نرتفع يم الاجناب

من ضمن قصيدة قالها في خلافات البريك والحسينه من الخرصه يقول مثقال ابن محسن ابن عواد

> هو كان اول يْشير على عبيكه، ولد فِرْز، من شان يرتفعون يم الاجناب. قال له: انتزح يم الاجناب يامال التبن، ارتفع يم الاجناب وصلّ اول ما تِصلّ الغارة على ذِرْوات، اسحب الاجناب عليهم. هكالحين ما هيب مثل حكومتنا هالرشيده اللي الله يعزّهم ويطوّل عمارهم. يعني اول ترْتِفع يَمّ الاجناب وْتِصلّ القومان على غَريمك. والا تَفْعَل، تذبح الرجل وتِنزّ على لك

قبيله يا زاد عليك، لِمس خشمك الرجال.

وعادة ما تسعى الفئة النازحة إلى تزويج أحد فتياتها من شيخ القبيلة المضيفة لتوثيق العلاقة بها والارتباط معها بصلة القرابة. فحينما التجأ الرمال بعد خلافاتهم مع الجرذان والزميل إلى قبيلة الحويطات مثلا زوجوا عوده ابو تايه بنت جارد ابن رمال، أحد القتلى في حروبهم مع الزميل. وكذلك حينما التجأ المرتعد مع جماعته إلى قبيلة الحويطات بعد خلافهم مع العواجي على شيخة ولد سليمان زوجوا عوده من بنت دفيلج المرتعد. وقد وُثِّقت هذه الأحداث بسوالف وقصائد متبادلة لا يتسع المقام لإيرادها. وكل طرف يحاول من خلال هذه القصائد أن يبرر موقفه ويخطئ موقف الطرف الآخر، مثل قصيدة حمد ابن منْوِه من السهول من الضواويه من الفُضَيل من جماعة العواجي التي يشمت فيها من المرتعد مدّعيا أنه جنى على قومه وشتت شملهم وأضعفهم بتركهم قبيلتهم والتجائهم للحويطات. تقول بعض أبيات القصيدة:

يالمرتعد كنك من الحق جزعان ... انكخ براسك قاسيات الصفاة
شيخك يالمرتعد فود عوجان ... الفود عنز ورشها له بشاة
لك ربعةٍ غادين شَتٍّ ونجران ... بين الشمال ونجد راوحوا شتات
اللي ورا الشطين واللي ورا معان ... واللي ورا قهرين ما عاد ياتي

ولعله من المناسب أن نختتم هذا الفصل بقصيدة للشاعر إبراهيم ابن جعيثن والتي طلب منه أهالي شقراء أن ينظمها ليبعثوا بها إلى مشعل الغويري الدلبحي الروقي للقيام بما التزم به لهم من حق الخوي في قصة معروفة (ثميري ١٩٧٢: ١٣١–٣؛ عبيد: ٧٩–٨٢؛ عصيمي ١٩٩٥: ٧٤٠–٣؛ فهيد ١٩٩٥: ٣٩–٤٢) سنورد روايتها عند ابن عبيد أدناه. وحرْصَنا على إيراد هذه القصيدة وسالفتها أن أبياتها تُجمل معظم الحكايات المتداولة في وسط الجزيرة وشمالها عن حق الخوي والضيف وبقية السلوم والأعراف القبلية، خصوصا وأن القصيدة نفسها توثق أحد أشهر الحوادث المتعلقة بحق الخوي وما يتعلق بهذا الحق من التزامات يجب الوفاء بها. وهي قصيدة مشحونة بالتقريع واللوم، إذ لم يكن أمام أهل شقراء من وسيلة ضغط يجبرون بها الغويري على الوفاء بالتزاماته عدا اللجوء إلى الشعر والتذكير بما ستؤول إليه سمعته هو وقبيلته لو تهاونوا في الأمر ولم ينهضوا بالواجب الذي تحتمه عليهم سلوم العرب، وهذا ما يبين لنا أهمية الشعر ودوره في ذلك العصر والذي سبق أن قلنا بأنهم يسمونه **مشاعيب الرجال**، أي العصا التي يساق بها الرجال لحثهم على الوفاء بالتزاماتهم. كما أن الشواهد التي يوردها ابن جعيثن في قصيدته تؤكد على أن السلوم والأعراف القبلية ذات صبغة وضعية، بمعنى أنها لا تستمد شرعيتها من النصوص المقدسة وإنما من السوابق ووقائع الحياة اليومية، ولهذا لجأ ابن جعيثن إلى سرد السوابق من الأفعال التي تمثل قدوة يُقتدى بها، وسنة ينبغي اتباعها لمن يحرص على سمعته ومكانته، وحجة قوية تدعم موقف أهل شقراء ضد

خصمهم. كما أن الحادثة تبين لنا أن الأعراف القبلية لها اليد العليا حتى على الحاضرة في ظل غياب السلطة المركزية. من ضمن أبيات قصيدة ابن جعيثن قوله:

الصبح دوّج في فراقين عتبان ... دوّر فريق الدلبحي وين راحِ
اندب وقل قوموا جميعٍ بنصحان ... والا البسوا عقب البياض السياح
خويكم ما تنوخذ فيه الاثمان ... ريف الهزالى راح عمره سماح
عمره قضى والعلم من ذاك ما شان ... يندا إلى كلّت وجيه الشحاح
حجّاجنا ما ثَوروا كود بحصان ... تخيّرَوا مشعل قعودٍ ضْياحي
يبون به زودٍ وهو صار نقصان ... وذبحت قرايعهم سواة الاضاحي
الحق يبغي حد وسنان ولسان ... وربعٍ يطيعونك بكل المشاحي
وقطع الخشوم وهدّ الاشناق وايمان ... وسبع تصبّحهم وهم بالمراح
وقلب قطوعٍ عند روغات الاذهان ... وفوايه تذكر بكل النواحي
اما حصل ما قيل مشعل بويضان ... ما مثل ربعك ينقلون السلاح
اما فعلتوا مثل فعل ابن خرصان ... صارت علومك يالغويري ضَحاح
ما انتب ضعيفٍ لك مخالب وجنحان ... وربعك على العايل تراهم ذحاح
لا انتم باهل بوره ولا انتم بذلاّن ... يم الحريب تْتَيّهون اللقاح
ليت الرفق من عزوة اولاد شيبان ... ضامن سْلوم السيّره مثل ناحي
ياكثر مثله بين لمات الاظعان ... كلٍّ على سالف جدوده يناحي
عاين فليفل مع هل الضلع ما شان ... دون الحسب داس الخطر واستراح
وفي مثلها شف وشلون سوى ابن سلطان ... ولد الدويش ان كنت للعلم صاحي[1]
لا تنسدح واذكر سوايا ابن سجوان ... خلّى ابن عمه عند فذّه يناحي
والطايله خذها الصويتي صنيتان ... من دون جاره صار للشبل ماحي
يوم انتفض فرخٍ من الوكر سكران ... صاده حمود وبرقعه واستراح
انشد من المشهد الى قصر برزان ... وما حدّرت جوده وقصر ابن ضاحي
ومن الكويت اجنب إلى عين فرزان ... وما طرّته سيفه وماها الملاح
سند على مكه ونشّد بالاوطان ... هو مثلكم خلّى خويّه سماح
ترى الخوي ما ينوخذ فيه حقان ... الا بضرب مذلقات الرماح
والى قضيت اللي بوجهك فلا شان ... تنام عن علم المسبه صطاح
تلبس الى شبّوا هل الحرب نيران ... ثوبٍ من البيضا عريض الشلاح
الى كويت فودع الكي نجحان ... ترى البرا يذكر بكي النجاح
ان كنت عجز ولا مشيتوا بالاقمان ... ادخل على برقا يفكك مناحي
وابرك لحمل الذم في كل ديوان ... واهثل مع اللي يصنعون المساح
ترى الدعث يقصر مشابر دهامان ... ويشرى على السبقه حصان المتاحي
ترى التفق نيشان والخيل ميدان ... هذي دروب اهل القضا والفلاحي

ويورد ابن عبيد مناسبة هذه القصيدة مُبتدأ بالقول إن العرب

يحافظون على تنقية وجوههم وعلى ما التزموا به لسواهم سواء كان وجه بخفاره او اعطاه

(١) فيصل ابن سلطان الدويش قتل ابن عمه هزاع ابن شقير الدويش عند جاره غازي البراق حين ضربه بعصا.

وجهه بدون خفاره فانه يفي له بذلك فمن ذلك ما وقع لاهل شقرا في سنة ١٣١٥ لنورد على قصتهم دليل يشهد بقيامهم دون وجوههم ودون ما التزموا به لغيرهم وانهم متى نكص منهم الذي يعرض وجهه لهم ثلبوه بالسب عند القبائل كلهم وجلس طول حياته لا يوثق به وعاش ممقوتا محقّرا عند قبيلته وعند غيرهم من القبائل الاخرا فتبقى حياته دائم وهي مهددة بالذل والهوان وان كان عاجزا عن القيام بما يجب عليه قاموا عشيرته وابناء عمه وشدوا عضده وساعدوه حتى يُتم ما التزم به وكانوا يرون بذلك أن المعيره لا تخص رجل واحد بل تشمل القبيلة كلها حتى يغسلوا العار الذي لصق بهم من طريق هذا الشخص الذي وصمهم بهذا العيب . . . فمن ذلك ان اهل شقرا البلد المعروفه من بلدان الوشم ارادو الحج الى بيت الله الحرام حينما قرب سفر الحجاج من اوطانهم وكان لزاما عليهم انهم لا يسيرون الا في خفارة تحميهم فاستدعو برجل من الروقه من قبيلة معروفة يسمون الدلابحه وهم قبيلة معروفين بالحمايه عن الجار والذمار واسم هذا الرجل مشعل الغويري وشرطوا له اربعين ريال وكسوة له ولاهله على ان يمشي مع هذا الحاج وهم في وجهه من كافة عتيبه حتى ينتهي بهم الى مكه وبعد انتهائهم من الحج يردهم الى وطنهم فالتزم لهم بذلك ثم انه بعد ما سار بهم وقطعوا اكثر الطريق حدث شي لم يكن بالحسبان فانهم لما وردوا على ماء يسمى ماء هكران وكان على الماء أخلاط من اعتيبه قطين فمنهم الدلبحي والعبيوي والغنامي والعضياني والمرشدي فاشتبك فتنة بين الحاج وبين البدو عند سقي الما كما هي عادة مطرده فتقدم امير الحاج واشخاص معه الى محل الفتنه قصدهم يفرعون بين الطرفين ويخلصونها قبل ان يلتحم بينهم شيء اشد مما حصل واسم امير الحاج عبدالله ابن هدلق ويلقب بالهريفي وبينما هو يفرع ويحول بين البدو وبين اصحابه اذ اتته رصاصة طائشه من البدو فاصابته في راسه فاردته قتيلا ومات من ساعته رحمه الله ثم اتت رصاصة اخرا فاصابت رجل يدعى ادحيم ابن صالح وكسرت ساقه وهو من ابناء عم الامير المقتول فافتك النزاع على مروق هذه السهمين ورحل الحاج عن هذا الما وقفلوا الى وطنهم شقرا واكرمو صاحبهم هذا الذي هم ساروا في خفارته وحرّضو عليه ان يفي بما التزم لهم في وجهه واعطوه جميع ما شرطوا له على التمام وزادوا فتوجه من عندهم وهو يرغي ويزبد ويعدهم بالوفا والقيام بنصرتهم حين ما يصل إلى قبيلته فلما وصل عند اهله وعشيرته را (رأى) أن القيام بما يجب عليه صعب لتفرق الدم بين القبائل وخفي عليه القاتل بنفسه فانثنى عن الاخذ بالثار لا عقل ولا قصاص ودام شهرين وهم لم يرون منه قيام بشي فارسلو له وطالبوه بما في وجهه لهم فزاد جمودا فقال اولياء المقتول لم يشعب الرجال على القيام بما في وجوههم الا القصيد فانظروا الى ابراهيم ابن اجعيثن من اهل التويم فهو شاعر يجيد القول وهو المجرب ويحيط بعلوم الباديه وما يشعبهم به مما يجعلهم ينهضون لاداء لزومهم على وجه السرعه فارسلو له وشرطو مئة ريال ان يقدم عليهم وينضم القصيده على الوضع المناسب لمهمتهم فقدم عليهم ونظمها في يومين ودفعها لهم مكتوبة بالقرطاس وعمدوا الى رجل يجيد قرأت الشعر ويبوج الفجاج واعطوه مئة ريال يركب بهذه القصيده ويسردها على من يعنيهم الامر ففعل وكان اسم الرجل فهد ابن مقرن وقد جعل القصيده على لسان اخو المقتول وهو الاكبر . . . فبعد ما قرئت عليهم هذه القصيده قاموا بالواجب خير قيام واشعلوا نيران الحرب حتى اعترفوا انهم هم اللي قتلوه قبيلة معروفه ثم ان مشعل الغويري وقبيلته خيروا اهل شقرا بين امرين اما ان يقبلوا اربع ديات والا ان يرغبوا في اخذ القصاص منهم فانا مستعد لما يرغبون فرغب اهل شقرا باخذ الديات لتنفع من خلفه وللمقتول ذرية واولاد صغار فقبلوا الديه وصرفوهاعلى حساب الايتام فانظر ايها القارى الى عوائد العرب الأولى وقد اضمحلت هذه بالكليه ونسختها الشريعه المحمديه والحمد لله على ذلك (عبيد: ٧٨-٨١).